مقاربات علمية للمقاصد الشرعية

د. أحمد فؤاد باشا



إن ما تحدث به علماء البيولوجيا الاجتماعية عن جينات الإيمان المسؤولة عن درجة السمو الذاتي روحياً لدى الإنسان يدحض ما يقول به أصحاب التفسير الاجتماعي من أن الدين نشأ في بادئ الأمر وثنياً؛ ثم ارتقى شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى التصور الصحيح المتمثل بمبدأ التوحيد؛ لأن الدين - بالنسبة لنا - فطرة وليس فكرة.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا تؤصل وتؤسس لمبحث سوسيولوجيا العلم في عصر الازدهار الإسلامي، وتقدم كذلك أمثلة حية للدور الذي يمكن أن يقوم به العلم الحديث والتقنية المتقدمة في خدمة الدين وفقه المقاصد الشرعية.

مقاربات علمية للمقاصد الشرعية

دراسة تأصيلية لسوسيولوجيا العلم في الإسلام

المؤلف

د.أحمد فؤاد باشا





رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي
هاتف: 4778990 - 4779792 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com



ح المجلة العربية، 1437 هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
باشا، احمد فؤاد
مقاربات علمية للمقاصد الشرعية / احمد فؤاد باشا.- الرياض، 1437 هـ
168ص؛ 14×21سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 231)
ردمك: 978-603-8168-45-5
1 - المقاصد الشرعية أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 251 1437/1465

رقم الإيداع: 1465 / 1437
ردمك: 978-603-8168-45-5

المحتويات

مقدمة

بسـم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمـين، والصَّلاة والسلام علـى أشـرف المرسلين سيدنا محمـد النبي الأمي العربـي الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالدين لازمة من لوازم المجتمعات البشرية، لكنه يسمو فوق الاحتياجات النوعية "البيولوجية"، لأن الإنسان يتجه من الدين إلى غاية لا تنحصر في النوع، بل تقرر مكانه في هذا الكون، أو في هذه الحياة. ويقول الأستاذ عباس محمـود العقـاد – رحمه الله - في كتابـه "الفلسفة القرآنيـة" إن الإنسان يتعلق من النوع بالحياة، ولكنه يتعلق من الدين بمعنى الحياة.

وقد تحدث علمـاء البيولوجيا الاجتماعية مؤَخراً عن "جينات الإيمان" المسؤولـة عن درجة السمّو الذاتي روحيّاً لدى الإنسان المحكوم بطبيعته ذات الجينـات الدينيـة التي لا مهرب منهـا. وهذا يدحض ما يقـول به أصحاب التفسير الاجتماعي من أن الدين نشأ في بادئ الأمر وثنيّاً، وقام على المبالغة في تقديس الأشياء والأشخاص، ثم ارتقى شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى التصور الصحيـح الذي يقوم على مبدأ التوحيد. أي أننا – فيما يزعمون – كائنات متديّنـة لأننا كائنات اجتماعيـة. والأحرى، فيما نرى، أن نقول إننا أصبحنا كائنـات اجتماعية لأننـا متدينون بالطبيعة والفطـرة النقية. فالدين فطرة وليس فكرة.

ومـن يدرس تاريخ التدين وأنواع الديانـات، وينظر في الدين كما صنعه البشـر أو تخيّلوه، وكذلك من يتأمل مفهوم الألوهية كما تصوّرتها الشعوب، وكما تصوّرها الفلاسفة قديمـاً وحديثاً، سوف يدرك بسهولة عِظَم الفضل

الإلهــي على بني آدم بمجيء التعاليم الإلهيــة، في الرسالات السماوية، التي عرّفتهــم بجوهر الدين وهو الإيمان بالله واتباع هداه، وصحّحت لهم أصول المعرفة، وأعطتهم النظرة الكلية الشاملة لكل ما يحتاجون إليه، حتى يتسنّى لهم أن يتوصلوا إلى معرفة الحقائق الكبرى في الدين والكون والحياة.

والدين الصحيح الذي أوحى الله – تعالى – به للمصطفين من الأنبياء والرســل لهدايــة النـاس إلى الصــراط المستقيم هــو دين واحــد في أصله، وجوهــره مبني على عقيدة التوحيـد الخالص لله - تعالى - وحده لا شريك لــه، وردّ الأمــور جميعهــا إليه. كمــا أن الديــن الصحيح مفطـور في كينونة الإنسان، أودعه الله فيه منذ خلقه، والمعرفة الفطرية للإنسان بخالقه ترجع إلى الميثاق أو العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في مرحلة الذرّ.

وكان الدين الخاتم هو الإسلام الحنيف – إسلام القرآن الكريم والسنة النبويــة المطهرة – الــذي أنزله الله – تعالى – للنـاس كافة، ليعطيهم كل مــا يعطيــه الدين الذي لا غنى عنه من خـير، ولا يحرمهم شيئاً من خيرات العلم والحضارة لمجاراة الزمن حيثما اتجه بهم مجراه. فالهدْي الإسلامي، فضلاً عن أنه رسالة ربانية للإنسان في كل زمان ومكان، جاء أيضاً ليصحب الإنســان في كل مراحــل حياتــه، ويرسم له في هذه المراحــل المتعاقبة المنهج الأمثـل لتحقيــق أمانــة الاستخـلاف بإعمار الحيــاة على الأرض وإشاعة الخـير فيهــا والسلام عليهــا، حتى يستكمـل حكمة الله من خلقــه وخلقها، بعــد أن سخر له كل ما في الكـون من نعم ظاهرة وباطنة لينتفع بها، ويمجّد بانتفاعهــا ربّ العالمـين. فالهدْي الإسلامــي إذَنْ رسالــة حضارية متكاملة ومتوازنــة، تجسدت في عصور الازدهار الإسلامــي الأولى، بتطبيق مبادئها وقيمهــا في واقع حياة البشــر، وإقامة الحجة على الناس كافــة بأنها ليست

مجـرد أفكار من ذلك النـوع الذي يأتي به الفلاسفـة والحكماء والمثاليون، بل هي رسالة حق وهداية، قوامها العلم والإيمان الموصولان بالخالق الواحد سبحانـه وتعالى: (اقرأ باسـم ربك الذي خلق) (سـورة العلق: 1)، والعلم الصحيـح الـذي يريـده الإسلام ويأمر بـه في أول ما نزل من آيـات القرآن الكـريم هو العلم النافع المحروسـ بالإيمان والداعي إليه. ولا يخفى على أي عاقل مغزى الخطاب الإلهـي الموجّه في القرآن الكريم للموقنين، ولأصحاب القلـوب التامة والنظـر السليم، وللذين يعلمون، ولقـوم يتفكرون، ويعقلون، ويفقهون آيات الله في الآفاق وفي الأنفس. فكان هذا الأساس نهضة المسلمين في انطلاقتهم الأولى. وأثمر التفاعل الإيجابي بين الإنسان المستخلف والكون المسخر أعظم حضارة إنسانية حققت انتشاراً ودواماً متلازمين لم تحققهما أي حضارة أخرى حتى اليوم.

لقـد أثمر الدمج بين القراءتـين في الكتاب المسطور (القـرآن) والكتاب المنظـور (الكون) عقليات متفتحة عرفت كيف تستنبط من الظواهر الكونية قوانينهـا، وكيف تستخرج مـن الأرض كنوزها وثرواتهـا، وكيف تستلهم من عـالم الغيب ما يفجر على طريق الخير والإيمـان طاقاتها. فقد صِيغت هذه العقليـات الإسلامية على نحو يجعلها قـادرة على إدراك حركة الغيب في كل مجريـات الواقع، وعلى تحقيق التوازن والانسجام بين العقل والنقل، والوعي والوجـدان، والروح والمـادة، وكل ماعدا ذلك من متقابـلات أتعبت أصحاب الفلسفات الوضعية وحيَّرتهم؛ لأنهم جعلوا منها ثنائيات ذات طبيعة تنابذيّة.

لكـنّ هـذا الأنمـوذج الإسلامي الحضـاري يفتقـد الآن إلـى دافع الحب والرغبـة الإيجابيـة في قلـوب المسلمـين، بعـد أن تكلَّسـت الأمـة، وتراجعت مؤسساتهـا الحضارية، في مقابـل الانبهار بنماذج وافدة لم تعد صالحة حتى

في المجتمعات التي نشأت فيها واحتضنتها. ومن هنا أصبح خطاب التجديد الإسلامي الحضاري ضرورة لابد منها لاستعادة دور الأمة الرائد في مسيرة الحضارة الإنسانية، ولمواجهة كل محاولات اجتياحها وهزيمتها من داخلها. ذلك أن الحضارة الإسلامية قدّمت خير مثال لما ينبغي أن يكون عليه العلم العالمي عندما انفتحت على الأمم المجاورة، وأثبتت أن المعرفة الإنسانية ذات موارد متعددة بين شرقية وغربية، ويغذي بعضها بعضاً، من دون أن تقام بينها حواجز منيعة لا تسمح باتصال أو تبادل، فحافظت على شجرة العلوم والمعارف خضراء يانعة، وارفة الظل وغزيرة الثمار. ومن أسف أن نجد اليوم في المقابل من يسعى إلى التشكيك في علاقة الإسلام بالعلم، مستشهداً بحالة التخلف التي سادت معظم المجتمعات الإسلامية، ومفتعلاً نوعاً من الصراع الذي لا يقبل المصالحة بين نظام ميتافيزيقي قائم على الإيمان والتسليم "بالغيبيات"، ونشاط مادي يتطلب الاستقراء التجريبي والاستدلال المنطقي.

من هنا نقول إن إيمانيات العلم أصبحت ضرورية لصياغة فلسفة جديدة ومتجددة بتجدد العلوم المختلفة وتقنياتها، تقوم على بحث الظاهرة العلمية من جوانب عدة تسمى "علوم العلم" Sciences of Science، وتهدف إلى فهم العالم برؤية إيمانية حضارية، انطلاقاً من مسلّمة التوحيد الخالص للخالق الواحد، لأن أول التكاليف الشرعية ومقصدها الأسمى هي معرفة الله – تعالى – والاستدلال على وجوده من خلال مخلوقاته، بالبحث عن آياته في الآفاق وفي الأنفس. ولهذا فإن البُعد الإيماني والوجداني في الفكر الإنساني يفتح آفاقاً رحبة للبحث والتأمل والتقصّي، وفق منهجية رشيدة، تلتزم تعاليم الإسلام، وتتمثل مقاصده وقيمه وغاياته، دون أن تعطل وظيفة العقل، أو تعوق حرية البحث والتفكير. كما أن البعد العلمي ودوره المحوري في

دعم مرتكزات الخطاب الإسلامي المعاصر ضروري لتحقيق الأمن العلمي والتقني في عالمنا العربي والإسلامي.

وغياب هذا الأمن يعني تعطيل فريضة إسلامية واجبة الأداء، مثلما أن غياب المدنية والشهود الحضاري يعني أن المجتمعات الإسلامية لا تؤدي أمانة الاستخلاف، ولا تحقق غايات الدين الذي تنتسب إليه.

من ناحية أخرى، يدلّنا استقراء الدور الذي تؤديه نماذج الفكر العلمي والفلسفي في تاريخ العلم والحضارة على أنها تحظى، أكثر من غيرها، بالتحليل والتطوير المستمرّين، نظراً لما يترتب عليها من تغيير وتجديد في الرؤى الكلّية، والمفاهيم التصورية، والممارسات العملية على حدٍّ سواء. و"سوسيولوجيا العلم"، أو "علم اجتماع العلم" Sociology of science، باعتباره أحد علوم العلم، مبحث حديث نسبياً، خرج من عباءة "سوسيولوجيا المعرفة"، أو "علم اجتماع المعرفة" Sociology of knowledge، وشغل حيزاً كبيراً في المجال العلمي منذ أوائل سبعينات القرن العشرين، بهدف تعظيم الإفادة من المعارف العلمية والتقنية المتنامية التي ينتجها جماعة العلماء في ظل الظروف والبِنَى المجتمعية المصاحبة لإنتاجها.

وإن شئنا تأصيلاً وتأسيساً، أكثر دقة وموضوعية وأمانة، لعلم اجتماع العلم، فإننا نعود به إلى جذوره في المجتمع الإسلامي الذي كان شاهدا على ميلاده، بعد أن هيأ الظروف التي سمحت للمصطلحات والأفكار والمفاهيم أن تنمو، وتترعرع، وتزدهر، وتؤتي أكلها أولاً لخدمة مجتمع أنتجها واحتضنها، ثم لتصبح بعد ذلك فروعاً في شجرة المعرفة لتغذية الحضارة الإنسانية ولخدمة المجتمع البشري بأسره، وتعود مرة ثانية في طورها المعاصر إلى المجتمع الإسلامي لتخدم خصوصياته الدينية والثقافية والاجتماعية، وغيرها.

وهـذه الدراسـة المتواضعـة التـي بـين أيدينـا تؤصـل وتؤسـس لمبحث سوسيولوجيـا العلـم في عصـر الازدهـار الإسلامـي، وتقدم أيضـاً نماذج معاصـرة للدور الـذي يمكن أن يؤديـه العلم الحديث والتقنيـة المتقدمة في خدمة الدين وفقه المقاصد الشرعية. وهي - على هذا النحو - بمثابة دعوة مُلحَّة لأهل الاختصاص أن يسهموا في هذا المجال البكر بأبحاث ودراسات متأنيـة تهـدف إلى ترشيـد الخطاب الدعـوي المعاصر للتعريـف بالإسلام والدفاع عنه، عقيدةً وشريعة وحضارة وثقافة.

هذا، والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحمد فؤاد باشا

رمضان 1436هـ - يوليو 2015م

الفصل الأول

سوسيولوجيا العلم الإسلامي



تعنـي سوسيولوجيـا (علـم اجتمـاع) العلم عمومـاً، في أحـد جوانبها، الارتبـاط باحتياجـات المجتمع كلمـا أمكن، والتأثـر بسائر أنـواع النشاط الإنسـاني في نطاق الثقافة السائدة، وفي حـدود الإمكانات المتاحة؛ ومن ثمّ فـإن هذا الفرع مـن علوم العلم يهـدف أساساً إلى تحقيـق ارتباط المعرفة العلميـة باحتياجـات المجتمـع عـن طريـق الإفـادة القصوى مـن التلاحم والانسجـام بين فروع المعرفة المختلفة، وخاصة بـين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية والتكنولوجية. ذلك أن المعرفة بفروعها المختلفة مرتبطة بمصالح الإنسـان منذ أدرك أهميته على الأرض، وبـدأ في تشييد حضاراته المختلفة والانتقال معها من أمة إلى أخرى.

وقد جاء الإسلام الحنيف ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويحثهم علـى بناء المجتمـع الإسلامي على أساس الإيمان والرحمـة والتكافل والعدل والسمـوّ في المعامـلات واتبـاع التعاليم الإسلاميـة طبقاً لما جـاء في القرآن الكـريم وعلى لسان محمد الرسول الأمين عليه الصـلاة والسلام. ولقد كان مـن أهم عوامـل التقدم العلمي والتقني في ظل الحضـارة الإسلامية حرص المسلمـين على تنفيذ أحـكام الشريعة الإسلامية وتأديـة العبادات والمناسك على أكمل وجه يرضي الله ورسوله، خاصة أن الإسلام قد فرض على أتباعه أمـوراً تستلزم دراسة الكون ومعرفة الزمن والعد والحساب وتحديد مواقيت الصـلاة وأوائل الشهور (ظهور الهـلال) ومواعيد الأعيـاد وتأدية المناسك والعبـادات، وتحديـد اتجـاه القبلـة ومواقـع البلـدان، ومعرفة عـدد الأيام والأسابيـع والشهـور والأعوام، ومضـي الآجال المضروبة للديـون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس في معايشهم. بل إن الله سبحانـه وتعالى قسَّم المواريث والغنائم بين المنتفعين والمستحقين بالحق

والعدل، وأنزل تفصيل ذلك في قرآنه الكريم على ما علمه من الحكمة فيما شرع وفرض، ولو تُرك الأمر للبشر لم يعلموا الأنفع لهم، فيضيعون الأموال على غير عدل وحكمة.

ففي سورة النساء وضح الله أحكام المواريث وأنزل آيات علم الفرائض في قوله تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً، وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) (سورة النساء: 11، 12).

وفي قوله تعالى في الآية (176) التي هي خاتمة سورة النساء: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

كمـا ورد الترغيـب في تعلـم الفرائـض في قـول رسوله الله عليـه الصلاة والسـلام : (تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم، وهو يُنسى، وهو أول شيء ينزع من أمتي).

وعـن توزيع الغنائم يقـول الله تعالى في الآية (41) مـن سورة الأنفال: (وَاعْلَمُـواْ أَنَّمَـا غَنِمْتُم مِّـن شَيْءٍ فَـأَنَّ لِلّهِ خُمُسَـهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِـذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَـى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقـد صنـف علماء المسلمـين مؤلفات مستقلـة، أو فصولاً مـن كتب يتم تخصيصهـا لشرح أمـور دينية وزيادة إيضاحها بأمثلـة تطبيقية، على نحو مـا نجد في باب "قسمـة الغرماء" الذي ذيّل به بهاء الديـن العاملي كتابه "خلاصـة الحسـاب"، وفي كتـاب "الجـبر والمقابلة" لمحمد بـن موسى الخوارزمـي الذي خصص منه جـزءاً لتطبيقات الجـبر في الحياة العملية يشتمـل على الكثير مـن الأمثلة المحلولة بطرق جبريـة ساعدت الناس على الاستفـادة منها والقياس عليها في مسائلهم المتعلقـة بالمعاملات والوصايا والمواريث.

وعـن هذا الجـزء التطبيقي تحدث الخوارزمي بأسلـوب تعليمي مبسط عـن الهدف من تأليـف كتابه فقـال: (.. وقد شجعني الإمـام المأمون أمير المؤمنـين على إيضاح مـا كان مستبهماً، وتسهيل مـا كان مستوعراً، فألفت من حسـاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً حاصراً للطيف الحساب وجليله لمـا يلزم الناس من الحاجة إليـه في مواريثهم ووصاياهـم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأراضي وكـرْي "تطهير" الأنهـار والهندسة وغير ذلك من وجوهـه وفنونه، مقدماً

لحســن النية فيه، راجياً أن ينزله أهــل الأدب، بفضل ما استودعوا من نعم الله تبارك وتعالى وجليل آلائه وجميل بلائه، عندهم منزلته، وبالله توفيقي في هذا وفي غيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

وســوف نعرض مثالــين يوضحــان بعض أنــواع المسائل التــي تزخر بها مؤلفات المسلمين في علوم الرياضيات وتطبيقاتها.

المثال الأول من كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي

(رجــل مات وترك أمــه وامرأته وأخاه وأختيه لأبيــه وأمه وأوصى لرجل بتســع ماله، فإن قياس ذلك أن تقيم فريضتهم، فتجدها من ثمانية وأربعين سهماً، فأنت تعلم أن كل "مال" نزعت تسعه بقيت ثمانية أتساعه، وأن الذي نزعت مثلُ ثمن ما أبقيت، فتزيد على الثمانية الأتساع ثمنها، وعلى الثمانية والأربعين مثل ثمنها ليتم مالك وهو ستة، فيكون ذلك أربعة وخمسين للموصَى لــه بالتسع، من ذلك ستة وهــو تُسْع المال، وما بقي فهــو ثمانية وأربعون بين الورثــة على سهامهم). وبيان ذلــك أن للزوجة الربع، وللأم السدس، ويُوزع مــا بقــي بين الأخ والأختين فيصيــب الأخ (7 / 24) والأخت (7 / 48) مما تــرك. وإذن لكي تخرج أنصبة الجميع صحيحة تُقسم التركة التي تخصهم إلــى (48) قسماً، ولكن ذلــك (8 / 9) التركة جميعها، وإذن التركة (54) قسماً، للموصَى له منها (6) والباقي (48) للورثة على سهامهم.

والمثــال الثــاني من كتــاب "أساس القواعــد في أصــول الفوائد" لكمال الدين الفارسي:

(أجــير أجرته في الشهر ثوب وعشرة دراهــم، عمل ثلاثة أيام فاستحق الثوب، فبالقياس يستحق بعمله عُشْر الأجرة، وهو درهم وعُشْر الثوب. فلما

أخذ الثوب يكون تسعة أعشار الثوب يعدل درهماً فقيمته درهم وتُسْع).

يقول الفارسي في حل هذه المسألة: (نقول نسبة الأيام إلى الشهر عُشر، وهي نسبة الثوب إلى مجموع الأجرة، فالثوب عُشر، والعشرة الدراهم تسعة أعشار، فقيمة الثوب درهم وتُسْع، ويقرب منه التركيب، وهو أن تفرض الأجرة شيئاً أي (س)، فيكون المستحق بالعمل عُشر شيء أي (س / 10)، وهو الثوب، والباقي معادلاً لتسعة أعشار الشيء، فالشيء (أي الأجرة س) أحد عشر وتُسْع).

وإذا انتقلنا إلى علوم الفيزياء والفلك والأرصاد نجد أن علميّ التقاويم والميقات يشكلان جزءاً أساسيّاً من المعرفة العلمية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحاجيات المجتمع الإسلامي.

أما التقاويم فإنها تتخذ من وحدات اليوم والشهر والسنة أساساً لوضعها، ويمكن إجمالها جميعاً في نوعين رئيسيين: أحدهما قمري أساسه دوران القمر حول الأرض، والآخر شمسيّ أساسه دوران الأرض حول الشمس. ويُعتبر التقويمان الهجري والميلادي خير مثالين لهذين النوعين من التقاويم. ودونما دخول في تفاصيل التقويمين، فإن الاهتمام بطرق الرصد الدقيق لتعيين مدارات القمر والكواكب قد زاد عبر القرون حتى أصبح بالإمكان الآن تحديد لحظة ميلاد الهلال بدقة كبيرة عن طريق حل المعادلات الرياضية لمداره حول الأرض، ولمدار الأرض الظاهري حول الشمس، وبلغت هذه الحسابات من الدقة ما جعلها تصلح للتحديد المسبق لمواقع الكواكب والأقمار، وضمان الوصول الآمن إليها في الفضاء بعد رحلات قد تستغرق سنين عديدة. وقد حفز ذلك أقطاراً إسلامية للاستغناء كلية عن رؤية الهلال بالعين المجردة والاكتفاء بالحسابات الفلكية أو الرصد

بواسطة أقمار اصطناعية، وحسب نتائج الرؤية أو الحساب أو الرصد، أو كل هذه الوسائل مجتمعة، في اليوم التاسع والعشرين من كل شهر هجري يتم الإعلان عن دخول الشهر الجديد في اليوم التالي أو الذي يليه.

وأما علم الميقات فقد برع فيه علماء المسلمين، وصنفوا العديد من الجداول لبيان الوقت منذ الشروق كدالة لارتفاع الشمس وتحديد أوقات الصلاة. وبالنسبة لاتجاه القبلة في مكان معين، فهو عبارة عن دالة مثلثية لخط العرض المحلي وخط عرض مكة المكرمة والفرق بين خطي طول الموقع ومكة. وكان اشتقاق معادلة اتجاه القبلة بدلالة هذه الكميات إحدى المسائل الأكثر تعقيداً في علم الفلك الكروي الإسلامي، وكانت أيضاً من أهم المسائل الدينية. وقد استطاع فلكيو الحضارة الإسلامية استنباط معادلات رياضية مكافئة للصيغة المستخدمة حاليّاً. بل إن منهم من اجتهد في تبسيط معرفة الوقت وتحري اتجاه القبلة بغير آلة، مثل شهاب الدين القليوبي (ت 1069هـ/ 1658م) صاحب رسالة "الهداية من الضلالة في معرفة الوقت والقبلة وما يتعلق بهما من غير آلة"، وفيها تحدث عن قيامه بأبحاث على محاريب مدافن مصر وغالب أقاليمها، حيث وجدها منحرفة عن سمت القبلة. وقد عثر الباحثون على آلة يعود تاريخها إلى حوالي عام 1100هـ/ 1700م وتحتوي على دائرة من الصفر قطرها 22.5 سم، رُسمت عليها خريطة للعالم الإسلامي، من الصين إلى الأندلس، وفي المركز مكة المكرمة وقد وُضعت البلدان الأخرى بحسب مواقعها من القبلة، حسب الاتجاه والمسافة. وقد زُوِّدت الخريطة المعدنية بعضادة (مسطرة الأسطرلاب) لتسهيل الاستعمال، وببوصلة مغناطيسية. وتعتبر هذه أول خريطة للقبلة توضح الاتجاهات والمسافات معاً، وذلك قبل أن تظهر الخريطة التي أعدها مؤرخ العلوم الألماني كارل شوي Carl Schoy عام 1920م[1].

(1) لطف الله قاري، الإنجازات العلمية للعرب والمسلمين في القرون المتأخرة، دار الفيصل الثقافية. الرياض 1427هـ- 2006م.

مـن ناحيـة أخرى، فطن علمـاء الحضـارة الإسلامية من أطبـاء وصيادلة بحكـم عقيدتهـم الإسلامية إلـى أهمية العلـوم الطبية والصيدليـة باعتبارها علومـاً نافعة تهدف إلى صحة العقل والنفس والبدن، التي تعين على توفير كافة المقاصـد الرئيسيـة الخمسـ للشريعة الإسلاميـة كما يراها الفقهـاء. بل إنهم استحدثوا علوماً جديدة، فأسسوا لما يُعرف اليوم بـ "علم الطب البيئي" و"علم الطب الاجتماعي" و"علم الطب الوقائي"، وغيرها، بالإضافة إلى علوم الطب الأساسيـة كالتشريح والجراحة، وعلم الطـب السريري، وطب النساء والتوليد، وطب الأطفال، وطب العيون، وطب الفم والأسنان، والطب النفساني، وغيرها[1].

كذلـك أَوْلَـى المسلمـون أهمية خاصـة لعلـوم الأرض بقسميهـا: الجغرافيا والجيولوجيـا، وكتبـوا فيهـا قبـل أن ينقلـوا كتب غيرهـم إلى العربيـة، وكانوا مدفوعين في هذا بعدة أسباب يأتي في مقدمتها دعوة الإسلام الحنيف إلى طلب العلـم وعدم التواني في تحصيله مهما بعـدت مصادره، وإعمال العقل في كل ما خلـق الله وسخره لخدمـة الإنسان، بما في ذلك الأرض التـي يعيش عليها، فهي أصل وجوده، من ترابها ومائها خُلق، وعلى صدرها وخيراتها يعيش، وإليها يعود ويتلاشـى تراباً في ترابها، ومنها يُبعث تارة أخـرى، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَـا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَـا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (سورة طـه: 55)، وقال سبحانه: (قُـلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَـى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ) (سورة العنكبوت: 20)، وقال جـل وعلا: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (سورة الملـك: 15)، فمشى المسلمـون في مناكب الأرض لينظـروا عظمة الله في خلقه،

(1) د. أحمـد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، دراسات تأصيلية، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2007م.

ويدونوا مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويفيدوا منها، وكانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تجتمع على وحدة دين ولغة وثقافة، فنزع العلماء إلى دراستها عن طريق الرحلات والأسفار، وطوروا الأجهزة العلمية كالبوصلة والأسطرلاب، للتعرف على تضاريس الأقطـار والبلدان لتوثيق الصلات بينها، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بالعدل بين سكانها جميعاً.

وتتجلى سوسيولوجية العلم الإسلامي أيضاً في جوانبه التقنية الإنمائية، وتطبيقاته العملية، ووسائله الفنية المستخدمة لتوفير كل ما هو ضروري لمعيشة الناس ورفاهيتهم وتطوير ظروف حياتهم.

ويكفي أن نشير هنا، على سبيل المثال لا الحصر، إلى "علم الحيل النافعة" الذي يمثل الجانب التقني المتقدم في علوم الحضارة الإسلامية. فبعد أن كانت غاية الشعوب القديمة من علم "الحيل" لا تتعدى في الأغلب استعماله في التأثير الديني والروحي على أتباع مذاهبهم، مثل استعمال التماثيل المتحركة أو الناطقة بواسطة الكهان، واستعمال الأرغن الموسيقي وغيره من الآلات المصوِّتة في المعابد، جاء الإسلام الحنيف وجعل الصلة بين العبد وربه بغير حاجة إلى وسائل وسيطة، أو خداع حسّي أو بصري، وأصبح التيسير على الإنسان باستعمال آلات متحركة (ميكانيكية) هو الهدف الإسلامي النبيل والجديد لتقنية الحيل النافعة التي نمت وتطورت على أيدي نفر من العلماء والتقنيين الأعلام، أمثال أبناء موسى بن شاكر، وبديع الزمان الحزري، وأحمد بن خلف المرادي، وتقي الدين الدمشقي، وغيرهم[1].

(1) راجع تفاصيل ذلك في المرجع السابق.

الفصل الثاني

فريضة الصلاة



قـال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّــلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (سورة طه: 132).

تبـين لنا هذه الآية الكريمة أن الصلاة أمر إلهي يشعر الإنسان في أدائه بقوة أعلى من قوّته تشده ويشعر في كنفها بالأمن والسكينة والحماية والقوة فيتغلـب بذلك على نفسه وتهـون كل آلامه ومشكلاته، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (يا بلال أقم الصلاة أَرِحْنا بها)، كما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام قوله: (وجُعلت قرة عيني في الصلاة) (أخرجه النسائي).

والصـلاة حافظة للصحـة دافعة عن الأذى مجلبة للـرزق؛ ولهذا دعت الآيـة الكريمة إلى الصبر والمداومة على أدائها، وقد قال تعالى: (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِـينَ) (سورة البقرة: 45)، وكان الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام إذا أصابـه خصاصـة نـادى أهله: (يا أهلاه صلّوا صلّوا)، وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة[1].

ولقد فرض الإسلام الصلاة وجعلها ركناً من أركانه، فهي عماد الدين؛ مـن أقامها فقد أقـام الدين، ومن هدمها فقد هـدم الدين، وهي تنهى عن الفحشـاء والمنكـر والبغـي، وتستوجب الطهـارة والوضوء قبـل أدائها. قال تعالـى في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُـمْ جُنُبـاً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُـم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِـطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَـمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيـداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُـمْ وَأَيْدِيكُـم مِّنْهُ مَـا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَـرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة المائدة: 6).

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثاني. ص499.

وفي الطهارة بالغسل أو الوضوء قبل أداء الصلاة حكمة بالغة تضمن استمرار نظافة الأعضاء الظاهرة من الجسم وصيانتها من كثير من الأمراض، فضلاً عن تنشيط دورته الدموية والتنفسية. فغسل اليدين أمر وقائي هام لمنع انتشار الأمراض، وتخليل ما بين الأصابع في الكفين والقدمين يحفظ هذه الأجزاء من بعض الأمراض الجلدية، والمضمضة بإدارة الماء وتحريكه في الفم، والاستنشاق والاستنثار بإدخال الماء في الأنف وإخراجه منه بالنفس، يساعدان على التقليل من انتقال جراثيم الأمراض إلى داخل الجسم، كذلك ينشط الجهاز العصبي بغسل الوجه واليدين والقدمين؛ لأن نهايات أطراف الأعصاب في هذه المناطق تتنبّه فتساعد في زوال الفتور والخمول.

وتجدر الإشارة إلى أن طهارة المسلم بالغسل أو الوضوء جزء لا يتجزأ من دعوة الإسلام الشاملة إلى طهارة الجسد والروح والعناية بهما معاً، فضلاً عن التزام الطهارة والنظافة في الثياب والفراش والمنازل والبيئة بوجه عام، وكلها عوامل للوقاية من التلوث بالأمراض وللمحافظة على المظهر الإنساني الكريم. والنصوص المقدسة التي تحض على الطهارة والنظافة العامة كثيرة، منها قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (سورة البقرة: 222)، وقول الرسول عليه السلام: (اتقوا الملاعن الثلاث: التبول (أو البراز) في الموارد وقارعة الطريق والظل) (رواه أبو داود وأحمد ومسلم). واقترنت الطهارة والنظافة في الإسلام بالإيمان، واعتُبر التلوث نجاسة كريهة يجب على المسلمين التطهر منها؛ لأن (الطهور شطر الإيمان).

والمـاء الذي جعلـه الله – تعالى – أصـل الحياة ووسيلـة التطهر يصفه القرآن الكريم بقوله: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِـنَ السَّمَاءِ مَـاءً طَهُـوراً) (سورة الفرقـان: 48). وقـد ورد لفظ "طهر" ومشتقاتـه في القـرآن الكـريم أكثر من ثلاثـين مرة لإيجاب طهـارة البدن والنفـس والبيئـة الإنسانيـة في الظاهر والباطـن، وفُرض الوضـوء للتطهر والنظافة قبل الصلاة. وجُعلت نظافة منطقتي القبل والدبر شرطاً أساسيّاً من شروط الطهارة وصحـة الصلاة. ذلك أن ما يخرج من السبيلين يحمل أعداداً هائلة من السموم والجراثيم التي إن بقي منها أثر في الجسم سببت لـه الكثير مـن المضار؛ ولهذا شـرع الإسلام غسل أماكن الخـروج وتنقيتها ممـا علق بها من أذى. وقد أوضحت دراسة علميـة أن الحرص على نظافة السبيلـين عامـل هـام في وقاية الجسـم من حـدوث السرطـان في الجهاز التناسلـي، ولهذا تقل أعداد المصابين بهـذا السرطان بين صفوف المسلمين الذين يحرصون على تقصي النظافة، ويكفي أن نعرف أن جراماً واحداً من الـبراز يحمل مئة ألف مليون جرثومة، ولنا أن نتخيل ما قد ينتج عن إهمال ذلك من ضرر وأذى بالغين.

ومـن سنن الفطـرة أيضـاً استنشاق المـاء، حيث يُعـدُّ المخاط ومـا شابهه مـن مفرزات تتراكم في نسيـج الأنف الداخلي وسطاً نموذجيّـاً لنمو الجراثيم والأحيـاء الدقيقة الأخرى التي قـد تسبب العديد من الالتهابات في حال تراكم المخـاط وعـدم إزالتـه وتنظيفـه. والاستنشاق عامـل مهم يخفف مـن تراكم المخـاط؛ وبالتالي فإنه يحدّ من حدوث تلـك الالتهابات. ولاستنشاق الماء أيضاً دور مهـم في إزالة ذرات الغبار التي قـد تعلق في تجويف الأنف الداخلي؛ ولهذا دور فاعل في تقليل تفاعلات الحساسية ونوبات الربو والتهابات الجهاز التنفسي

العلوي. وتتكفل عملية الاستنشاق أيضاً بترطيب جو الأنف الداخلي، وهذا يعني المحافظة على حيوية الأغشية المخاطية المبطنة لتجويف الأنف، وعلى العكس من ذلك فإن جفاف بيئة الأنف الداخلية يؤدي إلى تشققها، وينشأ عن ذلك مضاعفات مؤلمة. وقد وجد الباحثون أنه بعد المرة الثالثة للاستنشاق لا يوجد نمو ملاحظ للجراثيم ويصبح جوف الأنف خالياً منها تقريباً. ومع كل وضوء يتحقق المزيد من تناقص أعداد الجراثيم في الأنف.

ومن الأعمال العسيرة على القلب إيصال الدم إلى الوجه والكفين والرجل لبُعدها عنه. وعندما نتوضأ ينجذب الدم إلى هذه الأعضاء بتغير توازن الحرارة عند مس المياه الباردة لها. وهكذا يحصل بالوضوء التبريد والحيوية للأعصاب الموجودة في اليدين والقدمين وسائر الأعضاء المغسولة بماء الوضوء. وبارتباط هذه الأعصاب بالعصب الرئيسي في المخ يجد الإنسان النشاط بعد الوضوء، ويرتاح القلب أيضاً في مهمته، ويخف بذلك إمكانية حدوث القلق والتوتر. ولقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نتوضأ عند الغضب؛ لأن الوضوء يهدئ النفس والذهن والجسم ويحمي مرضى القلب من إصابة النوبة بسبب الخوف والغضب.

ويساعد الوضوء في شفاء دوار الرأس من الذين يعانون من ضغط الدم، فعند الوضوء وتبليل العين والأذن والأنف واللسان بالماء يشتد جريان الدم إلى أعصاب هذه الحواس وينشطها، ويعمل ذلك على ثبات درجة حرارة الجسم الداخلية عند 37م°.

وفي حالة الطقس البارد يساعد الوضوء بالماء الدافئ على رفع درجة الحرارة في الجسم من 36م° إلى 38م°، كما تزيد سرعة التنفس من 12 مرة إلى 29 مرة. وهذا يعني أن بدن الإنسان يتأثر سريعاً بالوضوء، سواء كان بالماء

الدافئ أيام البرودة أو بالماء البارد أيام الحر، ويبقى أثره طويلاً في الجسم.

أيضاً يصل تأثير الوضوء إلى الكليتين؛ فخلال جريان الدم من الأعضاء الباطنية إلى الجوارح الخارجية تمتص غدة العرق نفايات الدم منه، وتزيلها إلى الخارج بواسطة حفريات الشعر الموجودة في الجلد، وتختلط هذه الملوثات بماء الوضوء الذي ينظف الجسد منها، وفي العادة يجري هذا التنظيف بواسطة عمل الكلية بامتصاص النفايات من الدم وإبادتها مع البول أو عن طريق العرق؛ وبهذا يساعد الوضوء الكُلَى في عملها المستمر ويحميها بقدر ما من الأمراض الكلوية.

ويعمل الوضوء - كذلك - على حفظ جمال الإنسان، ويخفف تجفيف الجلد وتجعيده، ويعمل على الاحتفاظ برطوبة الجلد.

من ناحية أخرى، تقول المراجع الطبية الحديثة إن الجلد يعتبر مخزناً لنسبة عالية من البكتريا والفطريات، وتوجد معظم هذه الكائنات الدقيقة بكثرة على الوجه، وعلى البشرة، وعلى جذور الشعر، وفي الغدد الدهنية، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مئة ألف جرثومة على كل واحد سنتيمتر مربع من الجلد. وفي المناطق المكشوفة من الجلد يتراوح العدد من مليون إلى خمسة ملايين جرثومة لكل سنتيمتر مربع. وترتفع هذه النسبة في الأماكن المخبوءة الرطبة مثل المنطقة الإربية وتحت الإبطين، إلى عشرة ملايين جرثومة لكل سنتيمتر مربع. ونسبة الكائنات الدقيقة على الشعر كنسبتها على الجلد.

فالغسل منظف لجميع جلد الإنسان، والوضوء ينظف الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثاً بالجراثيم؛ لذا كان استعمال الماء أمراً مهمّاً؛ لأن هذه الجراثيم في تكاثر مستمر، والوضوء والغسل خير مزيل لها. ولو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة

منــه: فالفم والأنــف هما المدخـلان الرئيسيــان لأعضاء الجســم الداخلية، ونظافتهمــا من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب. ذلــك أن الأنــف والفم يكمــن فيهما ملايــين الميكروبــات والجراثيم مختلفة الأنواع ومتعددة الأشــكال، فمنها الميكروبات الكروية، ومنها السبحية، ومنها العنقودية، ومنها عصوية الشــكل، ومنها الميكروبات المرضية وغير المرضية. وتوجـد هــذه الميكروبات في حالــة تعايش سلمي مــع الإنسان طالمــا أنه يتمتع بمناعة قوية وصحة جيدة، وإذا ما اعتلّت صحته وقلّت مناعته، لأي سبب من الأسباب، أصبحت الفرصة سانحة أمام هذه الميكروبات لتغزو الجسم وتنتشر فيه مسببة له العديد من الأمراض. فالأنفلونزا ونزلات البرد تبدأ من الأنف، والحمــى الشوكيــة والنخاعية تبــدأ رحلتها من الأنف والحلــق إلى أن تصيب الأغشيــة المغلفة للمخ والنخاع الشوكي، وقلما ينجو منها الإنسان أو يسلم من بعض آثارها المتمثلة في حَوَل العينين، وصمم الأذن، والتخلف العقلي والذهني، وغــير ذلك. وهناك أيضاً - على سبيل المثــال لا الحصر- مرض الدفتريا أو الخنــاق الذي يبــدأ من الحلق أو الأنف، ويتميز بتكــون غشاء يسد الحنجرة، ويخنق الأطفال خنقاً. كما أن مرض "الأسكليروما" الذي ينتهي أيضاً بخنق المريضـ نتيجة انســداد الحنجرة أو الأنف من الداخـل، فإنه يبدأ من نشاط الميكروبــات المسببة له في الأنــف أو الحلق، وهكذا يمكن تصور فائدة الوضوء بالنسبــة لإنســان يغسل أنفه وفمه عــدة مرات في اليــوم فيطهرهما من هذه الجراثيم الكامنة والمتحفزة للانتشار، وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حيــث يقول: (إذا توضأت فمضمض). (رواه أبو داود والبيهقي)، ويقول عليه السلام: (إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه الماء ثم ليستنثر) (رواه الشيخان وأبــو داود)، وقــد دعــا الإمام علــي – رضيِ الله عنه – بوضــوء فتمضمض واستنشــق ونــثر بيده اليسرى، ففعــل ثلاثاً، ثم قال: (هذا طهــوُر نبي الله). (رواه أحمد والنسائي).

وتجدر الإشارة - في هذا الصدد - إلى سنة استعمال السواك عند الوضوء والصلاة، فقد رُوي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء). (رواه مالك والشافعي والبيهقي والحاكم)، وعن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) (رواه أحمد والنسائي والترمذي)، وعنها أيضاً أنها قالت: (كان النبي عليه الصلاة والسلام يستاك فيعطيني السواك لأغسله، فأبدأ به، فأستاك ثم أغسله وأدفعه إليه). (رواه أبو داود والبيهقي). والسواك يحتوي على مادة "الفلورين" التي تمنع تسوس الأسنان، ويحتوي على مادة قابضة للثة مما يقويها ويجعلها في حالة صحية جيدة ويمنع حدوث النزيف بها، ويحتوي على زيوت عطرية تكسب الفم رائحة عطرية مميزة، ويحتوي على مواد كيماوية مزيلة لصفار الأسنان. ويساعد السواك على تنظيف ما يعلق بين الأسنان من بقايا وفضلات الطعام وحماية الفم والأسنان من آثار تعفّنها.

واستعمال السواك المتكرر، وبخاصة عند كل صلاة، كما هي السنّة، وقاية حاسمة من تسوس الأسنان، وتنظيف مستمر، وإبادة باكرة للمستعمرات الجرثومية التي تتكون وتنمو بسرعة مذهلة، وتعشش بين ثنايا الأسنان. وتشير دراسات علمية إلى تميُّز السواك بنسب مرتفعة من مادة الثيوسيانات، وهي مادة ذات تأثير مضاد للنخور السّنيّة، كما أن استعماله المنتظم يحرّض عملية إفراز اللعاب من قِبل الغدد اللعابية الموجودة في الفم، وهذا عامل مهم في صيانة صحة الفم، والتخفيف من حدة ما يظهر فيه من أمراض.

كذلك أثبتت دراسات أخرى جدوى استعمال السواك في علاج التهابات الحنجرة والوقاية منها، وما له من تأثير مهدئ للأعصاب، وتأثير مضاد لما قد يصيب الفم من أنواع داء السرطان المختلفة.

وبهذا يكون أثر السواك مكملاً لأثر المضمضة في تخليص تجويف الفم من الأعداد الهائلة من الكائنات الحية المجهرية التي تتراكم فيه، وتزداد الفائدة المرجوّة بالدلك الخفيف للثة والأسنان باستخدام أصابع اليد. ويكفي أن نعلم أن عدد الجراثيم الموجود في سائل اللعاب يُقدر بحوالي مئة مليون جرثومة في كل سنتيمتر مربع واحد، كما أن هناك أعداداً أخرى من الطفيليات والفطريات التي تتغذى على بقايا الطعام الموجودة بين الأسنان. والمضمضة كفيلة بإنقاص تلك الأعداد بصورة ملحوظة، خاصة إذا تكرر هذا الفعل ثلاث مرات لكل وضوء في الأوقات الخمسة للصلوات المفروضة في اليوم والليلة. وحين يتآزر تأثير المضمضة وعمل السواك تحدث عمليتا التنظيف والتطهير المطلوبتين.

أما اليدان والذراعان والوجه وشعر الرأس والقدمان وأسفل الساقين، فهي أجزاء مكشوفة من البدن وغسلها بالماء ينقيها من الكائنات الدقيقة ويزيلها عنها، ويختبئ عدد كبير من هذه الكائنات في الأخاديد بين الأصابع وعلى عُقدها؛ لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتخليل أصابع اليدين والقدمين وغسل عُقدها، وذلك تعقّباً لما يمكن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيم والفطريات الضارة، خاصة تلك التي تتخذ من ثنايا الجلد في هذه الأماكن، كهوفاً لها وأخاديد تنمو خلالها.

ولقد شرع الإسلام على المسلم غسل جميع بدنه بالماء على وجه الإلزام في مواطن معينة، لغسل الجنابة والحيض والنفاس، وندب إليه في أكثر

مـن سبعة عشر موطناً أخـرى، كغسل الجمعة والإحـرام، بل قد حدد فترة زمنية يُكره تجاوزها بغير غسل، فقال عليه الصلاة والسلام: (حق الله على كل مسلـم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومـاً يغسل فيه رأسه وجسده) (رواه مسلم).

أمـا الصلاة ذاتهـا فإنها تمنـح مؤديها فوائـد عديدة. فأثنـاء الركوع يضغـط المرء على بطنه وأمعائه، وكذلـك أثناء السجود والنزول إليه. وهذا الضغط من شأنه أن ينبّه الحركة الدورية للأمعاء الدقيقة والغليظة فيعاون في أداء عملية الهضم وأداء فعل التبرز في وقته المعيّن بكيفيَّةٍ سليمة، ويساعد في منع الإمساك.

كذلـك يعمل الضغـط الواقع على الكبـد والقنوات المراريـة والصفراوية علـى زيادة إفراز العصارة الصفراوية وتيسير انتقالها من الحوصلة المرارية والقنوات الكبدية إلى الأمعاء الدقيقة "الإثنا عشر" للتعامل مع ما يقابلها من غذاء. وللمساعدة في هضم الدهون وتحويلها بواسطة أنزيم يُسمى "الليباز" إلى أحماض أمينية وجلسرول، وفي غياب هذا الإنزيم يتعذر هضم الغذاء.

وحركـة العضلات أثنـاء الركوع والسجـود والقيام تؤدي إلـى تقويتها، وبخاصة عضلات جدار البطن فتمنع ترهلها وتحول دون تشويه قوام الجسم وبدانته، كذلك تساعد حـركات الصلاة على تقوية المفاصل وتليين حركتها وانعكاس ذلك على نشاط الجسم لأداء الأعمال الأخرى بكفاءة أفضل.

وحين يركع المسلم أو يسجد في صلاته فإن معدل تدفق الدم إلى النصف العلـوي من الجسم، وبخاصة إلـى المخ والرأس، يـزداد. وتكرار هذا الفعل يجعل كميـة الدم وما يحمله من غذاء للخلايا أكـبر، فيزداد بالتالي معدل التنبّه والتركيز والقدرة على الإبداع والتفكير العميق.

وأهم ما يميز الوضوء والصلاة من الناحية الصحية أنهما يعتمدان على الحركة غير المجهدة والموزعة بشكل منتظم على كل أوقات اليوم ليلاً ونهاراً، وهي لا تقل في أهميتها عن تلك التمارين الرياضية البدنية المعروفة بـ"التمارين السويدية"، حيث يتم تحريك جميع مفاصل الجسم وعضلاته القابضة والباسطة، علماً بأن عدد ركعات الفروض 17 ركعة، وتصبح مع سننها 36 ركعة. فإذا اعتبرنا – على سبيل المثال – انخفاض الرأس للأسفل أثناء السجود وما يحدثه من احتقان دموي في الأوعية، ثم ارتفاع الرأس للأعلى فجأة وما يحدثه من انخفاض في الضغط داخل الأوعية، وتكرار هذه الحركة في كل ركعة 6 مرات ما بين ركوع وسجود بما يبلغ 216 مرة في اليوم - فإن الأوعية الدماغية تزداد مرونتها وتقوى جدرانها وعضلاتها بفضل تلك الحركات المنتظمة التي تجعلها عند السجود أو الركوع، ثم القيام منهما، بين انقباض وارتخاء. بل إن الإسلام يحث أتباعه على اعتياد المساجد لأداء الصلاة، والمشي إلى المسجد رياضة خفيفة محبَّبة تنشط الجسم كله، وخاصة جهازه الدوري والتنفسي والمفاصل والعضلات.

وسمو الجو الروحي الذي يتمتع به المصلي يؤدي إلى راحة النفس وهدوئها، فيتم تمثيل الجسم للغذاء بكفاءة أعلى وتنتفي الأسباب النفسية والعصبية لحدوث بعض الأمراض المتعلقة بالهضم مثل قرحة المعدة والاثنا عشر والقولون العصبي واضطراب الهضم العصبي وصعوبة البلع العصبي وفقدان الشهية العصبي، وغير هذا من أمراض القلب والضغط والأمراض العصبية والنفسية. وقد أكدت تجارب العلماء وجود علاقة وثيقة بين إتمام هضم الغذاء في جو نفسي طيب وبين كفاءة سير عمليات الهضم.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن الصلاة في القرآن عبادة يجب الامتثال

بهـا لأمر الخالـق العظيم، ولا يجـوز تعليقها بما يكشفه لنـا العلم، فمجال العلم مهما ارتقى محدود ولا يمكن له أن يستوعب كامل حكمة الله في كل ما يفرضـه علـى عباده أو يروّض به خلقه، ولكن هـذا لا يمنع من التحدث عما يكشف عنه العلم من فوائد للفروض والتوجيهات الإلهية.

(رَبِّ اجْعَلْنِـي مُقِيـمَ الصَّـلاَةِ وَمِـن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَـا وَتَقَبَّلْ دُعَـاء) (سورة إبراهيم: 40).

وإذا انتقلنا إلى لطيفة أخرى من لطائف العلم والإيمان تتعلق بصلاة الفجر على وجه الخصوص، فإننا نستهدي بقوله تعالى: (أَقِم الصَّلاَةَ لِدُلُوك الشَّمْسِ إِلَـى غَسَقِ اللَّيْـلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْـرِ كَانَ مَشْهُوداً) (سورة الإسراء: 78)، حيث تذكر كتب التفسير أن قرآن الفجر في هذه الآية الكريمة هي صلاة الفجر؛ وسُمِّيت قرآناً لأن من أركانها قراءة القرآن، كما سُمِّيت مشهودة لبيان فضلهـا وعظيم شأنها وكبير أجرهـا، فهي في وقت يصعب على الإنسان القيام فيه من نومه الهنـيء ودفء فراشه المريح، ولكن المؤمنين تتجافى جنوبهم عن المضاجع اللينة ويستيقظون في أعماق الليل متقربين لخالقهم بالدعاء والصلاة خوفـاً وطمعاً، كما وصفهم الله تعالـى في قوله: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُـونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (سورة السجدة: 16)، وفي قولـه: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً) (سورة الفرقان: 64)، وكذلك في قولـه ترغيباً في التهجد: (إِنَّ نَاشِئَـةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئـاً وَأَقْوَمُ قِيلاً) (سورة المزمل: 6). وناشئة الليل هي القيام بعد النوم.

وسُمِّيت صلاة الفجر مشهودة كذلك؛ لأنها في وقت يكون الإنسان فيه على أحسـن حـال، بعد نوم الليل وراحة بدنه وعقلـه وأعصابه وسمعه وبصره من متاعـب النهار ومشاغل الحيـاة. فالإنسان يستعيد في وقت النوم قواه البدنية

والعقلية والعصبية، فيصفو عقله وتهدأ أعصابه وتتجدد خلايا بدنه، فيتجدد نشاطه وحيويته بعدما كُفَّ لفترة مناسبة عن الحركة والتفكير وقضى الليل في هدوء وسكون. ولاشك في أن الذهن المستريح يكون أكثر استعداداً للفهم والخشوع من الذهن المرهق بالعمل، وليس من المعقول أن تكون حال العقل والجسم قبل النوم كحالها بعد استغراقهما في نوم عميق طويل.

من ناحية أخرى، تحث آية (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) على تنظيم الحياة الإسلامية بالمحافظة على الوقت والتبكير في بدء العمل بصدر منشرح وعزم مكتمل، وإنه لمن الغفلة أن يألف أقوام النوم حتى الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يَغُطُّون في نومهم على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون في سعيهم من أجل معاشهم ورزقهم، وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (اللهم بارك لأمتي في بكورهم) (أخرجه أحمد في المسند 3/ 416).

ويأتي دور العلم الحديث ليلقي بعض الضوء على الإعجاز القرآني في دعوته إلى الاستيقاظ المبكر فيبين جانباً من الفوائد التي يجنيها الإنسان بيقظة الفجر، ويكشف عن المزيد من معنى آية كريمة، حجبه أولاً ذلك النطاق العلمي الضئيل المعروف عند عرب الجاهلية. وما تكذيب الكفار للقرآن وقت نزوله إلا لأنهم اعتزوا بما علموا. وما أنفه علمهم آنذاك، فعدُّوا كذباً كل ما لم يتفق مع علمهم، فشهَّر القرآن الكريم بجهلهم وعاب ذلك عليهم في قوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (سورة يونس: 39)، ويمكن إجمال رأي العلم في بيان فوائد يقظة الفجر وبركة البكور فيما يأتي:

1 – تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون في الجو عند الفجر، وتقل هذه النسبة تدريجيّاً حتى تضمحل عند طلوع الشمس. ولهذا الغاز – في حدود النسبة

الطبيعيـة المقدرة له – تأثير مفيد للجهاز العصبي، ومنشط للعمل الفكري والعضلي، بحيث يجعـل الإنسان في الصباح الباكر في ذروة نشاطه الفكري والعضلـي، ولعـل الإنسان قد استطـاع بخبرته العمليـة أن يستشعر نشوة لا مثيـل لهـا في أية ساعة مـن ساعات النهـار أو الليل عندمـا يستنشق نسيم الفجر العليل.

2 – تكون نسبة الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس أكبر ما يمكـن عند الشروق، وهي الأشعة التي تحث الجلد على تكوين فيتامين "د" الـلازم لنمو العظـام وتقويتها، والاستيقـاظ الباكر يتيـح للإنسان الفائدة القصـوى من هذه الأشعة بالاستعـداد لاستقبالها، ناهيك عن منظر شروق الشمـس ذاته وما يبعثه لون الأشعة المائل إلى الحمرة من إحساس جميل في النفس.

3 – تبـين أن النـوم على وتيرة واحـدة لساعات طويلة يعرضـ الإنسان للإصابـة بأمراض القلب؛ لأن النوم ما هو إلا حالة سكون يؤدي استمرارها طويـلاً إلى ترسيب المواد الدهنية على جـدران الأوعية الشريانية، ولا شك أن الاستيقـاظ الباكر وقطـع النوم الطويل فيه وقايـة للإنسان من أمراض أوعية القلب.

4 – مـن الثابـت علميّـاً أن أعلى نسبـة للكورتيزون في الـدم تكون وقت الصبـاح، وأقل نسبة تكون في المساء، ومن المعروف أن الكورتيزون يزيد من فعاليات الجسم وينشط أجهزته لعمليات التمثيل الغذائي بوجه عام.

وإذا مـا أضفنـا هذه الفوائد إلـى تلك التي يجنيها المسلـم من الوضوء والصلاة نجد أن حكمة الإسلام لا مثيل لها في دعوة الإنسان إلى الاستيقاظ مبكـراً واستقبال اليوم الجديـد بجد ونشاط حيث تكـون إمكاناته الذهنية

والنفسيـة والعضلية على أعلى مستوى في الساعـات الأولى من النهار؛ مما يـؤدي إلـى مضاعفة الإنتـاج في عالم ملـؤه الرضا والصفـاء والسرور. ولو تصورنـا أن ذلـك الالتزام بتعاليـم الإسلام أخـذ طابعاً جماعيّـاً فسيغدو المجتمع المسلم مجتمعاً مميَّزاً فريداً تدب فيه الحياة منذ البكور.

أمـا بالنسبـة لمواقيـت الصـلاة وتحـري اتجاه القبلـة فنجـد التكليف الشرعـي واضحاً في قوله تعالى: (فَـإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتـاً) (سورة النساء: 103)، وفي قوله سبحانه: (قَدْ نَرَى تَقَلُّـبَ وَجْهِـكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَـوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ وَحَيْثُ مَـا كُنتُمْ فَوَلُّـواْ وُجُوِهَكُـمْ شَطْـرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُـواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُـونَ أَنَّـهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَـا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُـونَ) (سورة البقرة: 144)، وفي قولـه جل جلاله: (وَمِنْ حَيْـثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّـا تَعْمَلُونَ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (سورة البقرة: 149، 150).

وقد أسس المسلمون الأوائل "علم الميقات" لخدمة هذا التكليف الشرعي بتحديد اتجاه القبلة ومواقيت الصلاة من الليل والنهار تحديداً دقيقاً. ومع بدايـة القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ظهر نظام "المؤقت" كفلكـي محترف مسؤول بالدرجـة الأولى عن تنظيم أوقـات الصلاة. وكان أحـد الأغراض الرئيسية من اختراع الساعات المائية أن تساعد على إعلان الأوقـات المحدِّدة للصـلاة عندما تكون السمـاء مظلمة أو ملبـدة بالغيوم،

فقـد كان الميقات الفلكي داخـلاً في بنية الساعات المائية؛ نظراً لأن سرعات تشغيلهـا كانت تعدل يوميّاً للتوافق مع طولي الليل والنهار. ولا تزال الأجزاء الخارجية لهذا النوع من الساعات، المصممة في القرن الرابع عشر الميلادي، موجـودة في إحدى الغرف العليا في مسجـد القرويين بمدينة فاس بالمغرب، وكان يُعلـن عن أوقات الصلاة أثناء النهـار برفع علم على قمة المئذنة، وفي أثناء الليل بإشعال النار في موقد عند قمة المئذنة لكي يعلم الموجودون خارج المدينة أوقات الصلاة.

مـن ناحيـة أخرى، سبـق ابن يونس المصـري إلى وصـف طريقة دقيقة لتحديـد اتجاه القبلة وجدهـا "كارل شوي" في أوائل القـرن العشرين أنها لافتـة للنظر من حيث إنها تعطينا بلغة العصـر تعريفاً لمعادلة جيب الزاوية وجيب التمام في حساب المثلثات الكروية.

وفي العصـر الحاضر توجـد آلات ذكية لتحديد المواقيـت واتجاه القبلة والمواقع المختلفة من أي مكان في العالم.



الفصل الثالث

فريضة الصيام



قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: 183، 184)، وقال عليه الصلاة والسلام: (صوموا تصحّوا). (رواه الطبراني).

بمثل هذه النصوص المقدسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تقررت فريضة الصوم كركن من أركان الإسلام، وهي فضلاً عن كونها فريضة تعبدية واجبة على المسلم يؤديها طاعة لأمر ربه، إلا أنه من الواجب عليه أيضاً أن يبحث في الحكمة من وراء هذا الصيام والفائدة التي يجنيها منه.. وهنا تؤدي العلوم الكونية المختلفة دوراً هامّاً في تعريف المسلم ببعض هذه الفوائد التي تشمل جميع جوانب حياته، وخاصة الطبية منها.

ولقد بدأ المهتمون بالطب، فرادى وهيئات، مشوار البحث عن آثار الصوم على صحة الإنسان فعرفوا بادئ ذي بدء أن الإنسان ليس هو الكائن الوحيد الذي يصوم، بل إن جميع الكائنات الحية في الكون تمر بفترة صوم اختياري مهما توافر لها الغذاء في البيئة من حولها، وقد لاحظ العلماء أن هذه المخلوقات تخرج من فترة الصيام هذه أكثر نشاطاً وحيوية، وأن أكثرها بعد الصوم يزداد نموّاً وصحة، وقد حاول الباحثون تفسير ذلك علميّاً فلم يتوصلوا إلى أكثر من أن هذه المخلوقات التي تعيش على الفطرة يُعتبر صومها ظاهرة فسيولوجية، أي مرتبطة بوظائف الأعضاء وعوامل البيئة، واعتبروها ظاهرة عامة لكل الكائنات الحية وأطلقوا عليها اسم "ظاهرة البيات".

أما بالنسبة للإنسان الـذي يتصرف بعقله أكثر مما يتصرف بغرائزه، فقد اكتشف العلماء من آثاره التاريخية أنه عرف الصوم في العصور القديمة بفطرتـه وغريزته قبـل أن تنزل الكتب السماوية؛ وهـذا يؤكد أن المخلوقات تلجـأ إلى الصـوم بالفطـرة لأنها تجد فيه فوائـد لا تستطيـع أن تحددها، ويهديهـا الخالـق العليم إليه لضـرورة فسيولوجية لازمـة لاستمرار الحياة والمحافظـة عليها، تماماً مثل الأكل والشرب والتنفس والحركة والنوم؛ ومن ثم فإن الابتعاد عن الصوم يؤثر سلبيّاً على الصحة.

ومـن أول الفوائـد الحيويـة للصـوم مـا نجـده في تنشيـط التفاعلات الكيميائيـة والبيولوجية التي تحـدث داخل الجسم عند الجـوع أو الصوم. ذلك أن جسم الكائن الحي في حالة الصيام يبدأ باستهلاك المواد الغذائية المخزونـة فيه، وعندما ينتهي المخـزون من الغذاء تبـدأ البروتينات المكوِّنة لأعضـاء الجسم المختلفـة، وأولها الكبد والعضـلات، بالتحرك والتخلخل. فـإذا كان الصوم لمدة مناسبة محدودة وغـير زائدة عن الحد المعقول، كما هـو الحال في صوم رمضان، فإن هذا التخلخل في بروتينات أعضاء الجسم يجعلهـا أكثر قابليـة للتجدد والنشـاط واستعادة شبابهـا وحيويتها.. وهذا يعنـي أن الصوم يعمل على تجديد وتنشيـط أنسجة الجسم وخاصة أنسجة الغـدد التـي تسيطر على النمـو والحركة وعمليـات الهضم والبنـاء؛ الأمر الـذي يفسر لنـا ظاهرة النشـاط الزائد والنمو السريع الـذي يُلاحظ على الحيوانـات والطيور والديدان بعد فـترة الصوم أو "البيـات" كما يسمّيها علماء الأحياء. وهذه الحقيقة هي عكس ما يتصوره الجهلاء من الناس من أن الصـوم يؤدي إلى الهـزال أو الضعف أو فقر الدم. وهذا طبعاً بشرط أن يكون الصوم في حدود المعقول كما نظمه الإسلام.

وحديثنا عن العلاقة بين الصيام وفوائده الحيوية للصحة العامة يكتسب أهمية خاصة في ضوء اهتمام الباحثين والعلماء بموضوع أسرار الحيوية والشباب وتجنب مشاكل الشيخوخة، حيث يكتشف العلم كل يوم ما يؤكد حكمة التعاليم الإسلامية من توفير الحياة التي يحبها المسلم كهبة من الله سبحانه وتعالى، ويحب ما فيها من الطيبات، ويحب أن يؤدي أمانة الاستخلاف على خير وجه وهو في أتم صحة وعافية إلى أن يعبرها إلى الآخرة التي هي خير وأبقى؛ ومن ثم فإن المسلم مطالب بالأخذ بالأسباب لأنها سنن الله في خلقه، مع تسليمه وتفويضه لله وإيمانه بالقدر والأجل المحدد. ومن أسباب المحافظة على الصحة العامة التزام النظام الإسلامي في الصوم والغذاء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا). (رواه الترمذي). وقال أيضاً: (اسألوا الله العفو والعافية فإنه ما أوتي أحد بعد يقين خيراً من معافاة). (رواه النسائي).

وعن فريضة صوم رمضان يقول الله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة: 185).

تبين هذه الآية الكريمة أن الإسلام فرض الصوم على المسلمين طوال شهر رمضان المعظم، وبيَّنت السنة النبوية المطهرة كيفية هذا الصيام وآدابه وأحكامه وغايته. أما أبحاث العلماء على مر العصور فقد كشفت عن حقائق هامة تجلّي الحكمة الإلهية من وراء تشريع الصيام، لا ليكون فرضاً

تعبديّاً فقط، ولكن باعتباره أيضاً من ضرورات الإبقاء على حياة الأحياء وسلامتهم. فالصوم من وجهة النظر الصحية وسيلة لتطهير الجسم مما يحتمل أن يكون به من زيادات في السموم الضارة، أو ما يكون به من غذاء لا لزوم له؛ ولهذا نجد الحديث عن الصوم في الموسوعات الصحية يندرج تحت باب العلاج بالغذاء.

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن الصيام مفيد لعلاج اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمّر، ويفيد في حالات زيادة الضغط والبول السكري. ذلك أن كمية السكر في الدم تقل بالصوم إلى أدنى المعدلات، وهذا يعطي غدة البنكرياس فرصة للراحة ويجدد كفاءتها ونشاطها مع غيرها من باقي أجزاء الجهاز الهضمي وملحقاته كالكبد والغدد اللعابية والحوصلة المرارية. ومن المعروف أن البنكرياس يفرز مادة الأنسولين التي تؤثر على السكر في الدم فتحوله إلى مواد نشوية ودهنية تترسب وتُخزن في الأنسجة، ولكن إذا زاد الطعام عن قدرة البنكرياس في إفراز الأنسولين فإن هذه الغدة تُصاب بالإرهاق والإعياء ثم تعجز أخيراً عن القيام بوظيفتها، فيتراكم السكر في الدم وتزيد معدلاته بالتدريج سنة بعد سنة حتى يظهر مرض السكر، ويعاني المريض من مشاكله ومضاعفاته الخطيرة. وخير حماية للبنكرياس من هذا الإرهاق أو العجز الوظيفي هو الصوم المعتدل، هذا فضلاً عن أهمية الصوم كعامل مساعد لنقص وزن الجسم عند مرضى السكر. ففي خلال ساعات قليلة من فترة الصوم الإسلامي التي تتراوح بين 12 و 17 ساعة حسب فصول السنة يهبط معدل سكر الدم ليبلغ حوالي 100 ميليجرام لكل (100سم3) من الدم، أو أقل من هذا المستوى بقليل، ومعنى هذا أن يتنبه الجسم ليبحث عن مصدر آخر للطاقة فيستمده من مخزون النشا الحيواني في الكبد ويحوله

إلـى سكر الـدم (الجلوكوز)، وهو مخـزون يكفي الجسم حـوالي 6 ساعات، وبعـد أن ينفد مخزون الكبـد يلجأ الجسم إلى الدهـون الموجودة تحت الجلد وفي الأعضـاء ليهدمها ويتمثلها ويحصل علـى الطاقة اللازمة بعد هدم بعض الأنسجة والخلايـا ذات الأهمية الأقل، وبخاصة المحتقنـة والملتهبة والمتقيحة فيتخلص الجسم منها ومـن سمومها مع إذابة الرواسب الكلية بتلك المناطق، ويتبع ذلك بناء أنسجة جديدة مكان ما تهدّم؛ ومن ثم تتجدد حيوية الأعضاء، ويستعيد الجسم نشاطه، وتواصل أجهزته المختلفة أداء وظائفها بكفاءة عالية.

ومن الجدير بالذكـر أن أغلب المدارس الطبية الحديثة المعنية بالبحث في طـول عمر الإنسان وتجديـد شبابه وحيويته تضع قواعـد صحية معينة تعتمد علـى تبسيط الغذاء والصوم لفترات محـدودة. من ذلك ما توصي به مدرسة "جابلـورد هاوزر" الأمريكي المعاصر صاحـب كتاب "عش مئة عام"، من أن أكل كميـات غذائيـة أكثر مما ينبغي يـؤدي إلى حدوث تسمـم بطيء وضعف تدريجـي لكثرة النفايـات في الجسم والـدم؛ ومن ثم فإنها تدعـو إلى تطبيق نظام علاجي أسمته "النظافة الداخلية" يعتمد على صوم المريض لمدة سبعة أيام عن كل أنواع الغذاء التقليدية، ويعتمد فقط على كميات قليلة من الزبادي والعسل الأبيض أو الأسود وشوربة الخضار وسلاطة الخضار وعصير الفواكه والسوائـل الدافئـة كالتيليو واليانسـون وغيرهما، وينصـح الطبيب الأمريكي مرضـاه بتطبيق هـذا النظام العلاجي مرتين في كل عـام في الربيع والخريف ليتلافـى الجسم الكثير من المتاعب، وخاصة في فـترة الشيخوخة، وهو يقول: (إننـي أعتقـد باختصار أن عمـر الإنسان هو عمر نظامـه الغذائي)، ويزداد العلماء يوماً بعد يوم اقتناعاً بصحة هذه النظرية[1].

(1) مـن أطـرف التجارب التي أجريـت حديثاً ما قام به البروفسور "كليف مـاكاي" بجامعة كورنيل عندما

وإذا كان هـذا هو مـا يضعه البشر لأنفسهم من قواعـد لاتباع نظام غذائي متزن يضمـن صحتهم البدنية والنفسية، فما بالنـا بالمنهج الإلهي الذي وضعه الخالـق الأعلم بمـن خلق وبيّنه النبي المعصوم الـذي لا ينطق عن الهوى بقوله: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع).

وتبين الآية الكريمة في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة البقرة: 183) أن البشرية مارسـت الصوم منـذ القدم، وإن كان التاريخ لا يحدد لنا بدقة أول صوم منظم عرفتـه البشريـة، إلا أن قدماء المصريين والهنود والصينيـين والإغريق وعرب الجاهليـة كانوا يمارسون الصـوم بطرق مختلفة، كل حسـب معتقداته. كذلك فرض الله تعالـى الصوم على موسـى - عليه السلام - وعلـى اليهود، وفرضه أيضـاً على المسيح عيسى - عليه السلام - وعلـى النصارى الذين يصومون في أوقات محـددة بأساليب معينة، ثم جاءت رسالـة الإسلام الخاتم لتفرض على كل مسلـم ومسلمـة صوم شهـر رمضان كل عام هجـري بالطريقة التي حددها البيـان النبوي، وهـي الامتناع عن شهوتَي البطن والفـرج من طلوع الفجر حتى مغـرب الشمس، وهو ميقات مرتبط بشهر قمـري التقويم، كذلك نجد أن صوم النوافل مرتبط بالشهور الهجرية القمرية التقويم. وهنا تظهر أول ميزة للصوم الإسلامـي، وهي أن يصوم المسلمون في كل أوقات العام صيفاً أو شتاءً أو خريفاً أو ربيعـاً، فيكتسبـون بذلـك قوة تحمل، ويتعلمـون الصبر، وتتكيـف أجسادهم بالصوم على احتمال تكاليف الحياة إذا ما أصابهم نقص في الطعام أو الشراب في مختلف الأحوال الجوية على مدار العام، وهذا بعكس الذين يصومون أيامهم

أعطى مجموعة من الفئران حديثة الولادة كل حاجاتها من الغذاء وتركها تأكل دون قيد فكبرت وسمنت وصـار الخمول عادتها، ثـم أعطى مجموعة مماثلة الغذاء بحساب فلم يتركهـا تأكل حتى تشبع فكانت معـدلات نموهـا طبيعيـة وتميزت بالنشـاط والحيويـة المتدفقة، فضلاً عـن أن أعمارهـا طالت بنسبة (40 %) مقارنة بأعمار فئران المجموعة الأولى.

مرتبطين بالتقويم الميلادي أو القبطـي (النظام الشمسي)، حيث يصومون كل عـام تحت ظروف جويـة وبيئية واحدة رتيبـة لا تتغير، فتكون الفائـدة أقل من ناحية تعود الجسم على مختلف الظروف الجوية والصبر عليها.

من ناحيـة أخرى، تتراوح فترة الصوم الإسلامي ما بين 12 و 17 ساعة يوميّاً حسب الفصل من شتاء يقصر فيه النهار، أو صيف يطول فيه النهار، أو ربيع أو خريف، وهي فترة من الناحية الطبية تعتبر مناسبة وكافية لحصول الأثر المطلوب بالتعود على كمية طعام وشراب أقل، فلا يكون الصوم مجهوداً فـوق طاقة المكلَّفين بـه. فالإنسان السوي (العـادي) يمكنه تحمل هذه المدة مـع إمكانية تأديـة أنشطة الحياة اليومية دون تـراخ أو فتور معتمداً في هذا علـى مخزون جسده مـن الطاقة والسوائل. وهكذا يكـون الصوم الإسلامي متوازنـاً، ففـترة الصـوم اليومي ليسـت بالقصيرة بحيث تنعـدم الفائدة، وليست بالطويلة كما في بعض أنواع صوم غير المسلمين الذين يمتد صومهم إلـى يومين وأكثر؛ مما يـؤدي إلى هبوط حاد بقوى الجسـد ويُشكل خطورة حقيقيـة على الجسم والكفاءة المطلوبـة لأجهزته المختلفة، خاصة ما يسببه نقص السوائل من دخول الجسم في مرحلة عدم التوازن لإحساس بالعطش والجوع مع التوتر والإجهاد العصبي والبدني.

وبعـد انتهاء فترة الصوم اليوميـة يبيح الإسلام لأتباعـه كل أنواع الطعام والشـراب فيما عدا المحرمات – في قصد واعتـدال، وبذلك يعوض الجسم ما فقده من طاقات كانت. مخزونة مع تلافي حدوث أي ضرر للجسم لإباحة تناول كل الأطعمـة، فلا يُصاب الصائـم بأمراض سوء التغذية أو نقص الفيتامينات والأمـلاح المعدنية. وهـذا بعكس بعض أنواع الصوم التـي تمتد لفترات طويلة، كمـا في الصـوم الكبير عند النصارى ومدته 55 يومـاً، حيث يعتمد الصائمون

على المواد الغذائية ذات الأصل النباتي ممتنعين عن أي طعام دبت فيه الروح، وبذلك يُحرم الجسم من البروتين الحيواني وأحماضه الأمينية الأساسية اللازمة لتكوين الأنسجة الحيوية والهرمونات والإنزيمات وغيرها مما يحتاجه الجسم ولا يستطيع أن يعوضه بالغذاء النباتي؛ ولذا نجد أن هذا النوع من الصوم شديد الخطورة على صائميه، وخاصة المراهقين والأطفال دون سن البلوغ والناقهين ما لم يتم تعويضهم بكميات مناسبة من البروتين الحيواني. وبطبيعة الحال تزداد الخطورة أضعافاً مضاعفة لدى من يُسمّون أنفسهم بالنباتيين الذين يعيشون حياتهم كلها على الأغذية النباتية فقط.

والصوم الإسلامي لا يمنع الصائمين من ممارسة أعمالهم وقضاء مصالحهم، عدا الطعام والشراب والجماع بين الزوجين، بعكس نوع الصوم الذي يمارسه اليهود مثلاً في يوم الغفران. (يوم كيبور)؛ حيث يمتنعون عن ممارسة أي نشاط من أنشطة الحياة، وصوم الإغريق اليونانيين القدماء – الذي يخرجون فيه إلى الطرقات في حالة من الاكتئاب والضيق والحزن الشديد تمنعهم من مزاولة أي عمل.

صوم شهر كامل تكون له حصيلة إيجابية بالنسبة لتحقيق تضامن جماعي أكثر صلابة، فبالرغم من انتشار أخلاقيات المادية الغربية في المجتمعات الإسلامية، إلا أن هناك مئات الملايين من المسلمين الذين يحرصون على صيام رمضان كل عام. كما يمكن القول بأن الصيام الجماعي لمدة شهر كامل، وفي قارات وأقطار مختلفة من المعمورة تمثل خاصية من خصائص الحضارة الإسلامية؛ فمن وجهة نظر علم الاجتماع يقرر هذا الصوم الجماعي من أوامر التضامن الاجتماعي داخل كل قطر مسلم، وكذلك بين المجتمعات الإسلامية المتعددة على ظهر الكرة الأرضية.

وهكـذا نجد أن منهج الإسـلام في الصوم يَفْضُلُ كل أنواع الصيام الأخرى في أنـه يراعـي فائدة الجسد وصحة الـروح ونقاء النفس، مـع مواصلة الحياة الطبيعيـة بنشاط وحيوية، فالحمد لله على نعمة الإسلام، وصلاة وسلاماً على رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين.

واستهداءً بمـا يقرره القرآن الكريم في قوله تعالـى: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَات فَمَن كَانَ منكُـم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَر فَعدَّةٌ مِّنْ أَيَّام أُخَـرَ وَعَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فدْيَةٌ طَعَـامُ مسْكِين فَمَـن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُـوَ خَيْرٌ لَّـهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُـمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾ (البقرة: 184)، فإن الخـير الذي يجنيه الصائم كثير كثير، تكشف عن كنوزه أبحاث العلماء من آن لآخر.

ولعل أهم البحوث ما يتصل بالعلاقـة بين الصيام وفسيولوجيا الأجسام، فقد أظهرت أحدث الدراسات العلمية أن دوريّة صيام رمضان، أي إيقاع تردده مرة كل عام، يعمل على تحسين إيقاع هرمون الميلاتونين Melatonin المسؤول عن انتظام الإيقاع الأساسي لحياة كل عضو، وكل نسيج وكل خلية في الجسم؛ ذلـك أن الميلاتونين هو الهرمون الذي يساعـد في الإبقاء على الضبط الدقيق لأجهـزة الجسـم حتى تظـل متوافقة وعاملة معـاً في تكامل وتناغـم، ولا تكاد خليـة واحدة في جسم الإنسان، أو جهاز كامل مـن أجهزته، لا يتعامل مع هذا الهرمون ويتأثر به.

إن هنـاك مصدراً أساسيّاً للميلاتونين يتمثل في "الغدة الصنوبرية" التي تقـع في منتصـف المخ تمامـاً، وتكون على صلـة وثيقة بالعين مـن خلال ممر عصبـي، وهكـذا فحينما يقع الضوء على شبكية العـين تتولد نبضة عصبية لا تلبـث أن تصل سريعاً إلى الغدة الصنوبرية التـي تستجيب لها وتقوم بتحويل الحامض الأمينـي "تربتوفـان" إلـى مـادة "السيروتونين". ومـا إن يحل

الظــلام حتى تبــدأ في تحويل السيروتونين إلى ميلاتونــين لا تختزنه بداخلها، بـل تضخه مباشرة إلى مجرى الدم. وعلى هذا فإن مستويات عالية نسبيّاً من الميلاتونين تسري بمجرى الدم في الليل إلى كل أجزاء الجسم، ولكن مستوياته تنخفض كلما اقترب الصباح حيث يتسبب الضـوء الوارد من العين في توقف إنتــاج الميلاتونين. ومعنى ذلك أن الغــدة الصنوبرية تفرز الهرمون وفق نظام دوري محدد يتبع الليل والنهار.

هــذا إذن هو المصدر الأساســي للميلاتونين. لكن الباحثــين عثروا حديثاً علــى مصدر آخر للهرمون يتمثــل في القناة الهضمية. فقــد أظهرت كثير من الدراســات أن الجهاز الهضمي يحول التربتوفان إلى الميلاتونين. كما بينت أن هــذا النوع المعوي خلافاً للميلاتونين الصنوبري، ينتج بشكل ثابت نسبيّاً، وأنه يشــكل قاعــدة أساسية مستوى الهرمــون في الدم على مدار اليــوم. وأكثر من ذلــك، فإن إنتاجــه في الأمعاء لا يتأثر بالنور والظلام، وهــذا يعني أن الجهاز الهضمــي يبدو كأنه مصدر مستقل تمامــاً لإنتاج الميلاتونين. وفضلاً عن ذلك توصــل الباحثون إلى أن إنتاج هــذا النوع يتحسن كثيراً مع الصيام، ومع الحد من السعرات الحرارية في الغذاء.

ونجــد في اعترافــات عظمــاء المعمَّرين في العــالم ما يؤكد هــذه الحقيقة العلميــة، فقد قال أحدهم وكان يتمتع بصحة جيــدة بعد بلوغه سن المئة: (إن تمسكي بأبسط المأكولات، وتقشفي في المعيشة. كان أهم ما تتميز به حياتي عن حيــاة الآخريــن. فعلى الرغم من ثرائي الوفير وتواجــد أسباب الحياة المنعمة لي، إلا أني قــد حييــت حياة خالية مــن الإسراف معظم أيامــي. وكان غذائي المحبوب التمر واللبن، كما أتناول الخبز الجاف والجزر.. وكنت أصوم فترات متعددة في كل عام فجنبت نفسي ويلات المرض ومتاعب الشيخوخة).

واضح إذن أننا بفضل الصوم نصبح أكثر شباباً وحيوية، وأطول عمراً؛ لأن الحقيقة التي لا مراء فيها أن تحسناً شاملاً يعم الجسم بكامله، وقد وضع العلماء نظريات كثيرة لتفسير ذلك، لكن يبدو أنهم اكتشفوا أخيراً أن هرمون الميلاتونين قد يكون هو أساس الظاهرة، وأن الصيام ينشط إنتاجه في الجسم.. بل لوحظ أيضاً أن الصيام يبقي على معدلات إفراز الميلاتونين – على مدى سنوات العمر الطويلة – كما كانت في سن الشباب؛ مما قد يفسر جزئيّاً علاقة الصوم بتأخر الشيخوخة، وهي العلاقة التي تشير إليها مئات التجارب التي أُجريت على الحيوانات المعملية، وعشرات الدراسات التي شملت المعمَّرين.

وهكذا يُظهر العلم لنا من آن لآخر بعض الحكم وراء تشريع الصيام، ندعو الله العلي القدير أن يعلمنا دائماً ما ينفعنا لفهم أحكام ديننا.

إن الحديث عن فوائد الصوم لا ينتهي، خاصة فيما يتعلق بفوائده الروحية. فالصوم كان ولا يزال خير أسلوب يتبعه البشر لتنقية النفس والارتقاء بالروح. وصوم رمضان على وجه الخصوص يتميز بنفحاته التي تبهج النفس والقلب، فهو يبدأ في جو تعم فيه الفرحة ديار المسلمين، ويستقبله المؤمنون مهللين مكبرين مرددين دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام عندما كان يرى هلال رمضان ويقول: (الله أكبر، اللهم أهله علينا باليُمْن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى، ربي وربك الله، هلال خير ورشد). (زاد المعاد).

ونفوس المسلمين تعلم أن أول شهر رمضان رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، وفيه ليلة القدر التي قال الحق في شأنها: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

(سورة القدر: 1-5)، فهي ليلة تساوي العمر كله بما فيها من خير، حيث إن الألف شهر تساوي نحو 83 عاماً، وهو ما يفوق أعلى متوسط لعمر الفرد في العالم[1].

وفي شهر رمضان يزداد السمو النفسي والروحي بصلاة القيام وقراءة القرآن وكثرة التسبيح والذكر والدعاء والبعد عن اللغو والرفث والجدال. ولا شك أن كل هذه المشاعر الروحية السامية تزيل ما علق بنفس المسلم من رواسب كامنة هي من مسببات الأمراض النفسية كالحقد والقلق والحسد وسرعة الغضب والتوتر والخوف والاكتئاب وغيرها، فقد أثبتت الدراسات الإحصائية أن حوالي (40 %) من مرضى العيادات لا يعانون إلا من أمراض نفسية، وفي أمريكا تزيد نسبة الأمراض النفسية والعصبية لتصل إلى (80 %)، ويزداد الإحساس بخطورة هذه الإحصائيات إذا علمنا أن هناك مجموعة من الأمراض تُسمى الأمراض النفس عضوية Psycho-Somatic Diseases، أي تلك التي تصيب الجسد نتيجة لعوامل نفسية معقدة يعاني منها المريض فتظهر في صورة مرض جسدي عضوي، ومن أمثلتها الكثير من أمراض القلب كالذبحة الصدرية ومرض عصاب القلب (الذي يسبب ألماً كاذباً كالذبحة الصدرية) وأمراض ارتفاع ضغط الدم والسكتة القلبية وغيرها، وهناك أيضاً أمراض الجهاز الهضمي الناشئة عن أسباب نفسية، مثل قرحة المعدة وارتفاع نسبة حموضتها وصعوبة البلْع العصبي والتلبّك المعوي وفقدان الشهية العصبي... وغير ذلك. وهناك أيضاً الأمراض الناشئة عن سبب نفسي، مثل الحكّة العصبية والأكزيما

---

(1) من المعروف أن متوسط عمر الفرد في الدول الغنية والمتقدمة يزيد قليلاً على 80 سنة، وفي الدول المتوسطة يتراوح بين 60 و 70 عاماً، وفي الدول الفقيرة يتراوح بين 45 و 55 سنة.

العصبية والبهاق وسقوط الشعر وغير ذلك كثير.. والإيمان الخالص يصنع أثراً يشبه المعجزات في علاج مثل هذه الأمراض والوقاية منها قبل تفاقمها، والصوم بلا شك تعبير حي عن هذا الإيمان وتطبيقه. والإسلام يتبع منهجاً علميّاً سليماً في تعامله مع النفس وفق قدرتها، حيث يتخذ من التدرج أسلوباً لتنمية الملكات الروحية والطاقات الإيمانية، فتفيد منها النفس غاية الفائدة في سهولة ويسر. وحين يبدأ رمضان يكون المسلم قد تهيأ نفسيّاً لقدومه، ثم تمضي أيام رمضان حتى اليوم العشرين فيعتكف المسلم في المسجد متفرغاً للعبادة ومفرغاً قلبه لربّه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.[1] وهذا التفرغ الكامل لعبادة الله يزيد بالتدريج من استعداد النفس وطهارة البدن لتقبل المزيد من فيوض التجلي الإلهي على عباده المؤمنين، وكيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه) (رياض الصالحين).

ويوزع الإسلام صوم الفرض والنوافل توزيعاً منتظماً طوال العام، فيضمن للجسم حالة دائمة من الحيوية والنشاط والتعود المستمر. فرسول الله عليه الصلاة والسلام كان يصوم في شهر شعبان ليعلم أمته كيف تُعَدَّ لصوم رمضان؛ وبذا يتعود الجسم تدريجيّاً وفسيولوجيّاً الدخول إلى حالة صوم طويل لمدة شهر متواصل. وكذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوم عقب انتهاء شهر رمضان ستّاً من شوال، وهذا معناه في لغة الطب إخراج الجسم من حالة الصوم المتواصل إلى حالة الفطر الدائم عن طريق التحول التدريجي؛ وبذلك لا يتعب الجسم ولا ترتبك أجهزته في أداء

(1) عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشدّ المئزر) (البخاري ومسلم).

وظائفهـا، ذلك أن خاصية "التعـوّد" أو "التكيف" التي وهبها الله للجسم البشري تمكنه من معايشة ظروف بدنية معينة لفترة من الزمن دون حدوث ارتباك في وظائفــه بشرط أن يدخل في هذه الظروف ويعيش معها منسجماً بطريقة تدريجية، وكذلك حال خروجه منها.

ومــن النوافل أيضــاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلــم كان يصوم يومي الاثنــين والخميس من كل أسبوع، وكان يصــوم ثلاثة أيام من كل شهر هجري هــي الثالث عشــر والرابع عشر والخامس عشر، هــذا بالإضافة إلى صوم يوم عاشوراء وتحبيذه صوم التاسع من شهر المحرم، وصومه لتسع من ذي الحجة ويوم عرفة، أي أن هنـاك حوالي مئة وخمسين يوماً من الصوم الفرض والنافلة على مدار العام، على أن يُترك صوم النوافل لمن يستطيع حسب ظروفه وطاقته. ومعنــى هذا كله أن الإسلام يفتح الباب أمــام المسلم بالصوم خلال العام كله ليفيد من مزايا الصوم الصحية، فضلاً عن مزاياه التعبدية والروحية.

وإذا كان البعض يتساءل عن حالة الجوع التي يستشعرها الصائم، خاصة في الأيام الأولى من شهر رمضان المعظم، أو في بعض الأوقات من نهار الصائم في أي وقت من العام يُسنّ فيه الصيام، فإن الإجابة على هذا التساؤل تقتضي أن نفرق من الناحية العلمية بين حالتين: إحداهما هي الجوع الكاذب، والثانية هي الجوع الحقيقي.

أمــا الجوع الـكاذب، أو الجوع المؤقت، فهــو ذلك الانفعــال العكسي الذي يعتري المرء حينما يحل ميعاد وجبته الغذائية، أو حينما يشم رائحة طعام شهي يتحلــب ريقه عليه، أو نحــو ذلك من العوامل الخارجيــة والداخلية الصناعية أو الثانويــة التــي تحــدث تنبيهاً مؤقتاً يثــير رغبة المرء في الطعــام. ويرى أهل الاختصــاص أن حالة الجوع التي يحسّ بها بعضــ الصائمين في الأيام الأولى

من رمضان إنما هي حالة من حالات الجوع الكاذب أو المؤقت، مرجعها إلى العادة والإلف. فالمعدة قد تعودت طوال أحد عشر شهراً على استقبال الطعام في ساعة محددة من النهار أو الليل. وما إن يحل موعد الطعام المعتاد حتى تنشط المعدة وتفرز مزيداً من الحامض المعدي، ثم تتقلص بهدوء في بادئ الأمر، وبعد حين تشتد تقلصاتها وتزداد حدتها، وكأنها تذكر المرء بميعاد وجبته. ولكن المعدة لا تتلقى إجابة من الصائم فتعود تلح في طلب الوجبة مرات، ثم شيئاً فشيئاً يضعف الانقباض ويخف الطلب، وبمرور الأيام الأولى تكف المعدة عن طلبها تماماً وتنصاع لنظام الغذاء الجديد، وهذا الانصياع خير دليل على أن جوع الصوم ما هو إلا جوع كاذب ما يلبث أن يزول بمرور الوقت، حيث تكون المعدة قد تعودت على مواقيت رمضان، وتكون قد أعادت ضبط ساعتها البيولوجية، وأعادت "برمجتها" بحيث يتحول النداء بطلب الطعام إلى موعد الإفطار الجديد.

وأما الجوع الحقيقي فهو حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب اللازمين لتزويده بالطاقة الكافية لنموه ونشاطه وحركته وحياته؛ ومن ثم فإن الاحتياجات الغذائية لجسم الإنسان في شهر رمضان المعظم هي ذاتها نفس الاحتياجات في أي شهر آخر، ويستطيع جسم الإنسان أن يأخذ احتياجاته الغذائية من وجبتي الإفطار والسحور؛ لذا لا يجب أن يختلف الغذاء في شهر رمضان المعظم عن غيره من الشهور الأخرى، وما دام الجسم يأخذ احتياجاته الغذائية من وجبتي الإفطار والسحور، فيمكن للإنسان أن يقوم بواجباته وأعماله العادية، ويجب ألا يركن إلى الكسل والخمول بحجة الجوع والعطش أثناء الصيام.

ولقد ثبت من نتائج علم تغذية الإنسان أن الجسم البالغ يمكن أن يختزن في المتوسط ما يقرب من 400 جرام إلى 500 جرام من المواد الكربوهيدراتية، وذلك على هيئة نشا حيواني يُعرف علمياً باسم "جليكوجين". وهذه الكمية

التي تختزن في الكبد والعضلات تعادل 1600 إلى 2000 سعر حراري تكفي الشخص البالغ من 12 إلى 17 ساعة في المتوسط، حيث يؤثر في ذلك الجنس والسنّ والوراثة ونوع العمل... إلى آخره. فضلاً عن هذا، يختزن الجسم كمية من الدهون إثر تناول الطعام يلجأ إليها مع البروتينات بعد احتراق كمية الكربوهيدرات ونفادها.

وهكذا يتبين لنا أن الصيام بريء من أية دعوى تزعم مسؤوليته عن الإرهاق أو التعب أو الشعور بالصداع أو غير ذلك؛ حيث إن المرء يُصاب بالإرهاق أو الصداع عندما يضطر الجسم لحرق كميات كبيرة من الدهون نظراً لزيادة الأحماض الدهنية في الدم، وهذا ما يشعر به بعض الصائمين الذين يصومون دون تنظيم لغذائهم في وجبتي الإفطار والسحور، أو يتناولون غذاء دسماً كثيراً بين هاتين الوجبتين، أو لا يتسحرون، أو يبكرون السحور، أو يؤخرون الإفطار، فيفقد الجسم نتيجة لذلك حالة التوازن التي حددها الصوم الإسلامي بفترة يومية ليست بالقصيرة التي لا يُرجى من ورائها نفع ورجاء، وليست بالطويلة التي تسبب الضعف والإرهاق.

وقد اتفق علماء التغذية أن المرء الذي يؤدي أعمالاً خفيفة يحتاج في حدود 1500 سُعْر حراري، بينما الذي يؤدي مجهوداً عضليّاً متوسطاً فإن احتياجاته من الطاقة تكون في حدود 2000 سُعْر حراري، والذين يؤدون مجهوداً عضليّاً كبيراً مثل عمال المصانع وعمال البناء فيحتاجون إلى كميات تصل إلى أكثر من 3000 سُعْر حراري، وفي ضوء هذه النصائح العلمية يجب أن يحافظ الصائم على صحته اهتداء بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف: 31).

الفصل الرابع

أكل الطيبات



قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (سورة البقرة: 172).

ترشد هذه الآية الكريمة إلى نعمة الغذاء الذي أوجده الله - سبحانه وتعالى - للإنسان ليفيد منه في بناء جسمه، ويمده بالطاقة اللازمة لحياته، وبالعناصر الغذائية التي تتكون منها خلاياه وأنسجته. فالغذاء ينبوع الحياة لا غنى عنه لكل كائن حي أوجده الله على هذه الأرض، من إنسان وحيوان ونبات. وتوجد في القرآن الكريم المبادئ الأساسية للتغذية السليمة القائمة على الاتزان وعدم الإسراف، كما نهى القرآن الكريم عن الأغذية الضارة والتي أثبت العلم خطرها على الصحة وكشف عن أسباب تحريمها، مثل الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (سورة البقرة: 168).

وتُعتبر الأغذية الحيوانية من مولدات الطاقة ومصادر البروتينات التي يعتمد الإنسان عليها في غذائه اعتماداً كبيراً، بالإضافة إلى الفيتامينات والأملاح المعدنية. وتتميز الأغذية الحيوانية بلذة طعمها وطيب شهيتها، وقد ذكر القرآن الكريم منها اللبن والعسل واللحوم بشتى أنواعها والسمك والطيور. وتؤكد البحوث العلمية أن اللحوم مصدر مركّز لعديد من المواد الغذائية التي يحتاجها الإنسان، مثل البروتينات وفيتامينات مجموعة "ب" وبعض العناصر والدهون، وبخاصة الكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم، كما تبين الدراسات العلمية أن مئة جرام من اللحم المطهي تمد الجسم بنصف احتياجاته من البروتينات، بالإضافة إلى الطاقة الحرارية يوميّاً، وأن اللحم ضروري لتجديد الدم والخلايا والأنسجة، ولأداء بعض الوظائف الفسيولوجية، ولمقاومة الأمراض التي تصيب الجسم.

ويُعتبر الكبد من الأغذية النافعة، وهو مخزن لمعظم المواد الغذائية ومصدر كبير للفيتامينات مثل فيتاميني "أ، د"، وبخاصة كبد الطيور والأسماك، كما يحتوي كبد الحيوانات على كميات هائلة من فيتامين "ب" المركب، وهو أيضاً مصدر غني لعنصر الحديد، بالإضافة إلى ما يحويه من البروتينات، ويُفاد منه لعلاج أمراض فقر الدم والكُلَى والمخ. أما مخ الحيوان فهو غني بعنصر الفوسفور وبعض العناصر الأخرى التي يحتاجها الجسم بكميات قليلة مثل الزنك والنحاس. وتختلف نسب البروتينات والدهون والكربوهيدرات والقيمة الحرارية تبعاً لنوع اللحم. ولا يحتوي دهن الدواجن على أحماض صلبة غير مشبعة، وتُقدر نسبة الأحماض الدهنية المشبعة في الدواجن بحوالي (30-35 %)، وهي تختلف تماماً عن الأحماض المشبعة التي توجد في الأبقار والغنم.

ولعل في هذا كله ما يظهر لنا حكمة التشريع الإسلامي في محاربته للمذاهب النباتية وحثه على أكل اللحوم التي أحلها الله تعالى لعباده. فحكمة الإسلام في هذا الصدد يوافقها ما أثبته علماء التغذية من أن الإنسان لكي يعيش عيشة صحية سليمة لابد له من أكل اللحوم والنباتات معاً، ولا يمكنه الاقتصار على أحدها دون الآخر. وتؤكد البحوث العلمية أن الإنسان إذا عاش على النباتات وحدها أُصيب بالهزال وضعف البنية، وتعرض لأمراض فقر الدم. وقد لوحظ أن الشعوب النباتية مثل الهند تكون أجسادهم هزيلة ضعيفة، فالطفل المولود في الشعوب النباتية لا يزيد وزنه عادة عن 2 كيلو جرام، في حين أن وزنه في الشعوب الأخرى التي تأكل اللحوم يزيد عن 3 كيلو جرام. ولعل هذا هو أحد الأسباب الرئيسة في تسمية الشعوب النباتية بالشعوب الصفراء.

وقد بدأت اليابان والصين في العصر الحديث بمحاربة هذه العادة النباتية حفاظاً على صحة أبنائها؛ وذلك بتشجيع أكل اللحوم في المدارس والمعاهد، ولكن هذا التغير في عاداتهم بدأ بدون هدى من عقيدة رشيدة أو دين قويم، فأقبلت الصين على أكل الكلاب والثعابين، كما أقبلت اليابان على أكل السمك النِّيء دون طهيه، وذلك بعد أن تبين لهم أن عدم تناولهم للحوم هو السبب الرئيس في ظهور أعراض فقر الدم، ولاسيما عند الأشخاص ضعاف البِنْية.

ومما يعوض النباتيين إلى حد ما أنهم يأكلون المشتقات الحيوانية كالحليب والبيض، وإلا أُصيبوا بالهزال وفقر الدم. وإذا كانت الأبحاث العلمية تبين أن النبات يحتوي أيضاً على البروتين والدهون، إلا أن نسب تواجد هذه المواد في النبات أقل منها في اللحوم، ولكي يحصل الإنسان على الكمية اللازمة لنموه وطاقته فلابد له من كمية كبيرة جدّاً من النبات مما قد يجهد جهازه الهضمي؛ وذلك لأن أمعاء الإنسان قصيرة بالنسبة لأمعاء الحيوانات آكلة العشب، فضلاً عن أن بروتينات النباتات لا تولّد جميع الأحماض الأمينية اللازمة لبناء أنسجة الجسم.

وقد صدق الله العظيم حيث يقول: (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (سورة الحج: 30)، وقوله: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) (سورة النحل: 116).

وأيضاً قال تعالى: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) (سورة عبس: 24).

يدعونا هذا الأمر الإلهي إلى أن نتأمل غذاءنا ونفكر في قدرة الخالق الذي جعل الجسم يؤدي وظائفه الحيوية بنسب مقدرة من المواد الفعالة في الغذاء،

وأي نقص في المقادير المطلوبة يمكن أن يكون له أثر سيئ على الصحة والحياة اللتين أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالحفاظ عليهما. وإن عدم توازن الغذاء يجعل الشخص عرضة لحوادث لا تقلّ في خطورتها عن نقص بعض المواد الهامة في الغذاء؛ حيث إن امتصاص بعض هذه المواد يعتمد على وجود كمية كافية من مواد أخرى في الأكل، فمثلاً، فيتامين "ج" ضروري في عملية امتصاص الحديد، وأيضاً نقص كمية الحديد في الدم، يكون مسؤولاً عن نقص فيتامين "ب12" في الدم، ويحدث أحياناً أنّ مجرد إعطاء الحديد لمثل هذا الشخص يحسن من وجود النقص في فيتامين "ب12".

ويحدد العلماء ثلاثة أنواع من الأنيميا تعود إلى نقص الحديد أو فيتامين "ب12" أو النقص الغذائي في حمض الفوليك. ويمكن معرفة أي نوع من الأنيميا لو تم فحص الدم وأخذ التحاليل اللازمة، مع ملاحظة أن هذه الأنواع من الأنيميا مرتبطة بالتغذية وتوازنها. وأهم شيء في تشخيص نقص الحديد هو حدوث التهاب في اللسان وتغيرات في شكل الأظافر وأحياناً صعوبة في البلع. وعلاج هذا النوع من الأنيميا يتم بتناول الحديد بالفم أو بالحقن، وإذا كان سبب الأنيميا هو نقص في الغذاء، فيلزم تناول فيتامين "ب" المركب وفيتامين "ج" للمساعدة في عملية امتصاص الحديد. ويُنصح بتناول مأكولات مثل الكبد وصفار البيض والفول لاحتوائها على كميات كبيرة من الحديد، أما اللحم والسمك والقرنبيط والبطاطس واللبن فتحتوي على كميات متوسطة من الحديد، بينما تحتوي الحبوب والخبز على كميات مناسبة ولكن بنسبة أقل.

وإذا كان هناك نزف أو عدم امتصاص حديد، مع نقص كمية الحديد في الغذاء؛ فإن هذا يزيد من حدة الأنيميا. إن نزيفاً مختفياً يمكن أن يكون

سببه بواسير أو فتاق في الحجاب الحاجز، كما أن سوء امتصاص الحديد يمكن أن يُعزى لأسباب كثيرة منها عدم وجود حامض الهيدروكلوريك في المعدة ونقص الحديد نفسه بسبب ضمور في الغشاء المخاطي للمعدة.

أما بالنسبة لنقص فيتامين "ب12"، فإن المطلوب اليومي منه بسيط جداً في حدود ميكروجرام واحد (أي جزء من مليون جزء من الجرام)، وهو حيواني في توزيعه، ويوجد في اللحم والكبد كما يوجد بكميات صغيرة في البيض واللبن. والمخزون من فيتامين "ب12" في الكبد يكفي لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات؛ ولذا نجد أن حدوث نقص غذائي من فيتامين "ب12" وحده يُعتبر شيئاً نادر الحدوث، وإذا حدث فيكون ببطء شديد. وعليه يمكن حدوث هبوط حاد إذا كان الشخص نباتيّاً تماماً ولا يتناول منتجات الألبان كلها.

ويؤدي نقص فيتامين "ب12" إلى تأثر أجهزة الجسم المختلفة، وبخاصة اللسان والبلعوم في الجهاز الهضمي، وأعصاب الأطراف في الجهاز العصبي. ويعالج نقص فيتامين "ب12" – حتى ولو كان بسبب الغذاء – عن طريق الحقن، وإذا كان مصحوباً بنقص في مواد أخرى فإنه يُفضل أن يعطى فيتامين "ب" المركب والحديث.

وأما بالنسبة لحمض الفوليك فإنه يوجد في المصادر الغذائية النباتية والحيوانية على حد سواء. وتُعتبر الخضراوات ذات الأوراق الخضراء وأحشاء الذبائح من الأغذية الغنية بحمض الفوليك، أما اللحم ومنتجات الألبان فإنها مصدر ضعيف لحمض الفوليك. وامتصاص حمض الفوليك يحدث طبيعيّاً في "الإثنا عشر" وأول الأمعاء الدقيقة، ويؤثر نقصه على الجهازين الهضمي والعصبي، بالإضافة إلى الدم، وتظهر أعراضه في

حدوث إسهال وتغيرات في اللسان. وتجدر الإشارة إلى أن حمض الفوليك يُدمّر بدرجة كبيرة أثناء عملية طهو الطعام، وبخاصة إذا استمر الطهو لمدة طويلة أو استخدام كميات كبيرة من الماء أو أُضيف بيكربونات الصوديوم للأكل، وفي مثل هذه الحالة فإن جميع محتويات اللحم والخضراوات من حامض الفوليك تُفقد تماماً.

وهكذا نجد أن الإنسان مطالب بالنظر إلى طعامه ليكون متوازناً متكاملاً ملبياً لاحتياجات جميع أجزاء الجسم والإبقاء عليها صحيحة سليمة لتؤدي وظائفها الحيوية التي هيأها الله لها، وجدير بالإنسان المؤمن أن يحمد الله - سبحانه وتعالى - ويشكره على نعمه التي لا تُحصى بعد كل وجبة غذائية يأكلها، فالحمد لله رب العالمين.

والأسماك تتفاوت أصنافها في التركيب الكيميائي تبعاً لأنواعها العديدة التي تعيش في المياه العذبة أو البحار، كما أن أسماك الصنف الواحد تتفاوت كثيراً في تركيبها. خصوصاً في نسبة الدهون، وهناك أسماك تختزن المادة الدهنية في جسمها. ولكن تتوقف نسبة هذه المادة، التي تتراوح ما بين (1-20 %)، على نوع غذاء الأسماك وعمرها وأماكن معيشتها أو تربيتها والفصل الذي تُصطاد فيه، كما تبلغ نسبة البروتين في السمك حوالي 19 % من وزنه، ويحتوي هذا البروتين على أحماض أمينية تشبه في تركيبها لحوم الأنعام، وهي ذات أهمية عظمى في عمليات التمثيل الغذائي وتكوين الصفراء والهيموجلوبين. والبروتين بما فيه من أحماض أمينية هو الذي يقوم بعملية الإحلال للأنسجة المستهلكة في الجسم وبناء أنسجة جديدة بدرجة لا تتوافر لأية مادة أخرى؛ ولهذا فإن الحاجة للبروتين تزداد أثناء الطفولة والحمل. ويدخل البروتين في كثير من الإفرازات المختلفة في

الجسـم، فالأنزيمات ما هي إلا بروتين. وبعض الهرمونات يدخل في تكوينها البروتـين أو الأحماض الأمينية، واللبن واللعاب يتكونان من بروتين، وتنظيم العلاقـات "الأزموزية" بين السوائل المختلفـة في الجسم لا يتم إلا بواسطة البروتـين، وإلا يحدث تـورّم "أوديما"، والأجسام المضـادة التي تؤدي دوراً كبيراً في مقاومة الأمراض ما هي إلا بروتين. إن العرق والصفراء والبول هي السوائـل الوحيدة في الجسم الخالية مـن البروتين. وأحد مصادر البروتين التي يرزق الله منها عباده بغير حدود هي الأسماك.

ويتميز دهن الأسماك باحتوائه على كولسترول، كما أن الزيت المستخرج مـن كبد الأسماك، وبخاصة كبد الحوت، غنـي بفيتاميني "أ، د"، وتتراوح نسبـة الرمـاد في أصناف السمـك المختلفة مـن (1-1.5 %)، وتقدر نسبة الأحماض الدهنية المشبعة في زيت السمك بحوالي (10-25 %) من مجموع الأحماض الدهنية في الزيت. وهذا يعني أن السمك يحتوي على نسبة عالية مـن الأحماضـ الدهنية غير المشبعـة؛ ولذا فإنه يمكـن استخدامه في عمل "الريجيـم" الغذائي، ولو أن نسبة الكولسـترول في السمك مساوية لنسبته في اللحوم والدواجن، بل إن بعض الأسماك البحرية تحتوي على نسبة أعلى من الكولسترول.

ويتوافـر فيتامينـا "أ، د" في زيـوت بعض الأسمـاك كالتونة، وتنخفض نسبة الفيتامينات كثـيراً في الزيوت المستخرجة من أجسام الأسماك وليس أكبادهـا. وتحتوي أسماك المياه العذبة علـى أنزيم يحلل "الثيامين"، وهذا الأنزيم لا يوجد في الأسماك البحرية إلا بنسبة ضئيلة في بعض الأصناف.

وتتميـز الأسمـاك بأنها تحتوي علـى نسب عالية مـن العناصر الحيوية كالكالسيـوم والنحاس والحديـد والماغنسيـوم والفوسفـور والبوتاسيـوم

والصوديوم والاسترنشيوم، كما يوجد الألومنيوم والفلور والليثيوم والمنجنيز بنسب متوسطة، والباريوم والكروم والرصاص والسيليكون والبزموت والفاناديوم والزنك بنسب ضئيلة للغاية، وقد تحتوي بعض الأسماك على آثار ضئيلة من البورون والنيكل والفضة والقصدير. وتحتوي الأسماك دائماً على نسبة ملحوظة من الكلور والكبريت وآثار من البروم واليود. وتُعتبر الأسماك البحرية غنية باليود مقارنة بالأغذية الأخرى، وهذا اليود يفيد الغدة الدرقية. أما نسبة الفلور المرتفعة في الأسماك، وهي حوالي خمسة أجزاء في المليون، فإنها غير ضارة بأسنان الإنسان لاتحاد معظم هذا العنصر في صورة مواد عضوية.

هذه بعض فوائد الأسماك في تحقيق توازن الغذاء السليم وتنوعه، وصدق الخالق المنعم حيث يقول: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (سورة المائدة: 96).

الفصل الخامس

توجيهات شرعية لسلامة الأسرة والمجتمع



لقد وضع الإسلام الأساس السليم لبناء اللبنة الأولى في صرح المجتمع السوي. قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الروم: 21). ولما كانت الأسرة هي وحدة بناء المجتمع الذي تتكون منه الدولة؛ لذا وجب أن تسود الأسرةَ روحُ السلام والوئام، وأن تبدأ تكوينها بزواج شرعي سليم بين الذكر والأنثى يحقق السكن والطمأنينة والأمن والسلامة، ويكفل استمرار الراحة الجسدية والروحية دون نَصَب أو عناء، وهو ما يحقق الوحدة والانسجام في هذا التكوين الاجتماعي الذي يشكل النواة لبناء مجتمع صالح خالٍ من الجهل والفقر والمرض والخوف والقلق، فهذه كلها أمراض اجتماعية يجب القضاء عليها لإصلاح حياة الفرد والمجتمع، وغير ذلك من المقاصد الشرعية.

ولقد تضمنت الشريعة الإسلامية توجيهات عديدة تنشد سلامة الأسرة والمجتمع، نعرض لبعضها فيما يلي:

الرضاعة الطبيعية

قال تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة البقرة: 233).

تقــرر هذه الآية الكريمة تشريعاً إلهيّــاً يقضي بتكليف الوالدات أن يرضعن أولادهــن حولين كاملين قبــل اللجوء لأية وسيلة غير طبيعيــة كالإرضاع بحليب البقــر وغيره. وقــد جاء في الحديث الشريف أن الرســول صلى الله عليه وسلم عندمــا طلــب من أسماء بنت أبي بكر – رضــي الله عنهما – أن ترضع وليدها عبــدالله بن الزبير قــال: (أرضعيه ولو بماء عينيك). ذلــك أن لبن الأم يتميز علــى جميــع الألبــان الأخرى بــأن تركيبه ومقــداره يتغيران من يــوم لآخر بما يلائم حاجة الرضيع الغذائيــة وتحمل جسمه، وبما يلائم غريزة أجهزته التي تتطور هي الأخرى يوماً بعد يوم، وذلك عكس اللبن الصناعي الثابت التركيب. فالثــدي في الأيام الأولى عقب الوضع يفرز اللبــأ "كولستروم Colostrum"[1] بكميــات قليلة لكنها غنية بالبروتينات والفيتامينــات والعناصر المعدنية المهمة ذات القيمــة الغذائية العالية والمفيدة في بنــاء الجسم ونموه. أما كمية الدهون في اللبأ فهي قليلة جدّاً حيث لا تستطيع معدة الطفل الرضيع هضمها. ويحتوي اللبــأ "الكولســتروم" أيضــاً على تركيزات عاليــة من بروتينــات خاصة قاتلة للميكروبــات والجراثيــم تُسمى "الأجســام المضادة"، كما يحتــوي على مواد كيميائيــة ذاتيــة تقي الطفل من عــدوى الأمراض إلى أن يحــين الوقت لنضوج جهــاز المناعة لديــه للاعتماد عليــه في مقاومــة الميكروبــات والطفيليات التي يتعرض لها، واللبأ ذو خاصة ملينة تعمل على دفع ما في أمعاء الطفل من العفن.

ومن تدبير الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وهو أعلم بمن خلق، أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي تلبية لنمو جسم الرضيع يوماً بعد يوم، حتى يصل إلى حوالي لتر ونصف في اليوم بعد سنة، وفي أثناء ذلك تتغير مكونات

---

(1) اللبأ هو أول لبن يفرزه الثدي عقب الوضع، ويكون سائلاً غليظ القوام أبيض اللون مائلاً إلى الاصفرار، ويُسمى علميّاً "كولستروم".

اللبن وتتركز مواده النشوية والسكرية والدهنية والبروتينية فترة بعد أخرى، بل يوماً بعد يوم، بما يلائم أجهزة الطفل وأنسجته المستمرة في النمو. بل إن إدرار اللبن وتركيزه يتغيران بشكل غريزي بين الزيادة والنقصان لإراحة الجهاز الهضمي عند الوليد بين فترة وأخرى، ويكون اللبن في المراحل الأولى للرضاعة رقيقاً ثم يغلظ وتتركز مواده بالتدريج، وفي أواخر الرضاعة تزيد نسبة الملح وتقل نسبة سكر اللاكتوز ويصبح لبن الأم غير مستساغ الطعم للطفل حيث يعرضه لسوء الهضم وميوعة النفس مما يساعد على فطامه.

وفضلاً عن هذا كله يتميز لبن الأم بأنه غذاء معقم بطبيعته وخال من الميكروبات والجراثيم التي تسبب نزلات معدية أو معوية، وهو جاهز في كل وقت تحت طلب الطفل ويصل إلى جسمه في درجة حرارة مناسبة.

ويُعتبر لبن الأم مصدراً جيداً لعنصري الكالسيوم والفوسفور، بالإضافة إلى فيتامين "أ" الواقي من العمى الليلي وجفاف قرنية العين، وفيتامين "ج" الواقي من الأسقربوط، وفيتامين "د" الواقي من الكساح ولين العظام، هذا عدا كميات من فيتامين "ب". أما نقص عنصر الحديد في اللبن فإن الطفل يولد وبجسمه ما يكفيه من الحديد طول مدة الرضاعة.

ولبن الأم أسهل هضماً لاحتوائه على خمائر "أنزيمات" هاضمة تساعد خمائر المعدة عند الطفل على الهضم خلال ساعة ونصف فقط، وتبقى حموضة المعدة طبيعية ومناسبة للقضاء على الجراثيم التي تصلها. وهذا بعكس حليب البقر مثلاً الذي يتأخر هضمه لثلاث أو أربع ساعات، كما تعمل الأملاح الكثيرة الموجودة في حليب البقرة على معادلة حموضة المعدة وإنقاصها إلى درجة تسمح للجراثيم – وبخاصة القولونية – بالتكاثر مما يؤدي لحدوث الإسهال والقيء.

وقـد كشف العلم حديثـاً عن أن لبن الأم يستطيـع أن يقتل طفيلاً دقيقاً يُعرف باسم "جيارديا"، وهو من الحيوانات الأولية الدقيقة التي قد تصيب أمعاء الأطفال لسنـوات طويلة. كما تمكن العلماء من عزل المادة الفعالة في لبن الأمهـات واتضح أنها إحدى مكونات الصفراويـة التي تجيء على هيئة خمـيرة "أنزيم" منشطة. ولقـد جُربت هذه المادة على طفيليات أخرى مثل الطفيـل الذي يسبب مرض الدوسنتاريـا الأميبية فقتلته.. وهذا من عجيب صنع الله الرحيم بعباده الضعفاء المحتاجين لعطفه ورعايته.

من ناحية أخرى، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (سورة لقمان: 14).

تشـير هذه الآية الكريمـة في أحد معانيها إلى فضـل الأم ومعاناتها خلال فترتـي الحمل والرضاعة. واستطـراداً للحديث عن حكمة الرضاعة الطبيعية ومدتهـا بالنسبة للأم والابـن الرضيع على حد سواء؛ يكشـف العلم عن كثير مـن الحقائق التي تجلّي بديع صنـع الخالق سبحانه وتعالى، وتبين بعض أوجه الإعجـاز في التعبـير القرآني الدقيـق، فقد ثبت أن وضـع الطفل في الرضاعة الطبيعيـة نصـف جالس يسهل نـزول اللبن إلى الحلق والمعـدة دون أن يجد له طريقـاً إلـى الأذن الوسطـى وإصابتها، وهو مـا يحدث أثناء عمليـة الإرضاع الصناعـي حيث يتناول الطفل وجبته عادة وهـو مستلق على ظهره مما يسهل مرور اللبن الصناعي في القناة الواصلة من الحلق إلى الأذن الوسطى والمسماة بقنـاة "إستاكيوس"، فيحدث التهابات بالأذن الوسطـى، ويكون من نتائجها انفجـار غشاء الطبلة ونـزول الصديد إلى خارج الأذن، وقد يـؤدي الأمر إلى حـدوث مضاعفات أخـرى كثيرة يمكن أن تصل إلى المـخ أو العصب الوجهي. من ناحية أخرى، يؤدي استخدام زجاجة اللبن في الرضاعة غير الطبيعية إلى

حدوث تسوّس في الأسنان الأمامية قبل ثلاث سنوات، حيث ينام الطفل وحلمة زجاجة اللبن في فمه طوال الليل فيتجمع اللبن بين الحلمة والأسنان الأمامية مسبباً تسويسها، ناهيك عن الاختلاف في حركة الفك واللسان والتنفس في عملية الرضاعة غير الطبيعية يحدث عنه اختلال في انطباق الفكين على بعضهما. ويعزو بعض العلماء حدوث تسويس في الأسنان اللبنية إلى نقص أو غياب مادة "السيلنيم" التي توجد في لبن الأم بنسبة عالية[1].

وقد لوحظ أن إدخال أغذية مساعدة على لبن الأم في الأسابيع الأولى بعد الولادة، مثل اللبن البقري، يزيد من حدوث أمراض الحساسية المسببة للإسهال والقيء والمغص وسوء الامتصاص ونقص الوزن. إن وجود مواد مناعية مثل الجلوبين "أ" المفرز من لبن الأم، والذي لا يوجد مثيل له في اللبن البقري، يحمِي من حدوث الحساسية في الطفولة المبكرة. ورغم كل التحسينات التي أُدخلت على طريقة إعداد اللبن الصناعي، وعلى طريقة إعداده للرضيع، فإن الإحصائيات تؤكد أن البعد عن الإرضاع من ثدي الأم يُعتبر من أهم أسباب ارتفاع نسبة الوفيات عند الأطفال.

ولبن الأم مثل الدم به أيضاً بعض الهرمونات والأنزيمات الفعالة، وقد ثبت أثره في تنمية ذكاء الطفل. ذلك أن أسرع مرحلة لنمو المخ تكون في العام الأول من حياة الإنسان، وخلال هذه الفترة يكون في حاجة إلى مواد غذائية كاملة ومتوازنة، وهي لا تتوافر بالشكل المطلوب إلا في لبن الأم فقط، وأي نقص يتعرض له الطفل بالإرضاع الصناعي غالباً ما يؤدي إلى نقص في القدرات العقلية.

(1) لوحظ أن حالات التهاب اللثة والأنسجة الداعمة للأسنان تنخفض بنسبة ثلاثة أضعاف في الأطفال الذين يرضعون من الثدي. أما حالات تشنج الحنجرة فلا تُشاهد إلا عند الأطفال الذين يعتمدون على الإرضاع الصناعي.

أما الأم المرضعة فتتمتع هي الأخرى بفوائد كثيرة من الرضاعة الطبيعية التـي تحميها من شـر الأورام والأمراض الخبيثة التي تحـدث للثدي. فمن قواعد سرطان الثدي أنه يصيب العذارى أكثر من المتزوجات، ويصيب غير المرضعات أكـثر من المرضعات، ويصيب قليلات الولادة أكثر من الوالدات، فكلمـا أكثرت المرأة من الإرضاع قل تعرضهـا لسرطان الثدي. ونزول اللبن من الثدي بعملية مص الطفل له يمنع تكدسه الذي يسبب تقيحات والتهابات بأنسجة الثدي تُعرف باسم "الخراريج المزمنة"

كما ثبت أن الرحم يعود إلى وضعه وحجمه الطبيعي بسرعة أثناء الرضاعة؛ لأن امتصاص الثدي يؤدي إلى إفراز هرمون يساعد على ذلك ويقلل من الدم النازف بعـد الولادة. ولا يخفى أثر هذا في استعادة رشاقة المرأة ومنع الترهل في بطنها، مما يدحض الادعاء بأن الرضاعة من الثدي تفسد الجسم وترهّله.

يُضاف إلى ذلك أن الإرضاع من الثدي يُعتبر طريقة غريزية مُثلى لتنظيم النسل ومنع الحمل لمدة عامين على الأقل دون حاجة إلى المخاطرة باستخدام وسائـل لا تخلو من مضاعفات مثل الحبوب والحقن واللوالب وغيرها. ذلك أن مصّ حلمة الثدي يحرضـ على إفراز هرمون "البرولاكتين" من الفص الأمامي للغدة النخاميـة، والبرولاكتين ينبه الوظيفة الإفرازية لغدة الثدي، ويـؤدي إلى نقصـ إفراز الهرمونـات المنمّية للتناسـل Gonadotorphins والمسؤولـة عـن التغيرات الدوريـة في المبيض، فلا يحـدث التبويض ويمتنع الحمل بنسبة (60 %) تقريباً من النساء المرضعات.

ومـن جميل الذكـر في سياق الحديث عـن أهمية إتمام مـدة الرضاعة الطبيعيـة؛ بحيـث لا يكون إنقاصهـا على حساب حق الوليـد (الرضيع) في الحيـاة الصحيـة السليمة كإنسـان، نشير إلى ما رواه الإمـام أحمد بسنده

عـن محمد بن مهاجر، عن أبيـه، عن أسماء بنت يزيـد الأنصارية، قالت: سمعـت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تقتلـوا أولادكم سرّاً: فإن قتل الغيل يـدرك الفارس، فيُدَعْثرُهُ عن فرسه) (رواه أيضاً ابن ماجه، كما رواه الطبراني بوجهين)[1].

مـن ذلك كله يتجلى دور العلم في إيضاح حرص الإسلام على الإرضاع الطبيعـي لمدة عامـين كاملين لمـن أراد أن يتم الرضاعة. وأمـا قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَـا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْـهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهـاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُـرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (سورة الأحقاف: 15)، فقد قال ابن عباس: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاعة 21 شهراً، وإذا وضعتـه لسبعة أشهر كفاه من الرضاعـة 23 شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين[2].

اعتزال النساء في المحيض

قـال تعالـى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُـواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّـى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُـنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِـبُّ التَّوَّابِـينَ وَيُحِـبُّ الْمُتَطَهِّرِيـنَ) (سورة البقـرة: 222)، لا

(1) راجـع في ذلـك البحث القيـم بعنوان "تحريم اغتيال حـق الوليد بين الدين والعلـم". للأستاذ الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر.

(2) استمـرار الرضاعة بعـد سنتين قد يعرض الأم لفقد بعض العناصـر الضرورية للجسم مثل الكالسيوم، ويعرض ثدييهـا للتقرح ومضاعفاته نتيجة قضـم أسنان الطفل اللبنية. ويفضـل الأطباء أن يتم فطام الطفل تدريجيّاً بالاستعانة بأغذية مناسبة إلى أن يتمكن من الاستغناء تماماً عن لبن الأم.

يقتصر الإعجاز في هذه الآية الكريمة على البلاغة ودقة التعبير عن الأمور الجنسية؛ بل إن إعجازها يتجلى فيما تقرره من حقائق كشف عنها العلم الحديث. فما هي الحكمة من تحريم الجماع أثناء الحيض؟ ولماذا كان النهي والنداء موجَّهاً للرجال دون النساء؟! للإجابة على ما يعنّ من تساؤلات في هذا المقام يجب أولاً تعريف المحيض وخصائص دم الحيض. أما كلمة المحيض فتعبر عن الفترة الزمنية لنزول دم الحيض شهريّاً، كل 28 يوماً، فيما يُسمى بالدورة الشهرية، وتستمر من ثلاثة إلى خمسة أيام أو تزيد، وتتراوح كمية الدم التي تنزل يوميّاً في المتوسط ما بين (70سم³) إلى (100سم³). وتعتبر عملية الحيض من وجهة النظر العلمية والطبية عملية هدم، حيث تتأثر خلايا الجهاز التناسلي للمرأة تأثيراً سلبيّاً، وتتأثر صحتها نتيجة لفقد كمية من الدم ونقص نسبة الهيموجلوبين. أما دم الحيض ذاته فليس دماً عاديّاً، وإنما تغلب عليه السيولة وعدم التجلط، وله رائحة خاصة تميزه عن الدم العادي، وهو يخرج من جميع الأوعية الدموية بالرحم، سواء الشرياني منها أو الوريدي، مختلطاً بخلايا جدار الرحم المتساقطة وإفرازات الغدد. ودم الحيض بيئة صالحة لتواجد الميكروبات ونموها في المهبل[1].

وقد تُصاب الأنثى بعُسْر الحيض، وتشعر بصداع شديد، وآلام بالثديين، واضطراب في المزاج، وعدم رغبة في المعاشرة الجنسية عند المتزوجات بسبب ما تحدثه من متاعب نفسية وبدنية؛ لهذا حرم الله - تعالى -

(1) في الأحوال الطبيعية يفرز المهبل إفرازاً حمضيّاً خاصّاً لتليينه وحمايته وتطهيره من الجراثيم. ومن أهم أسباب التهابات المهبل هو تغير الوسط الحمضي إلى القلوي أو المتعادل بسبب وجود دم الحيض. ويكون الرحم في أضعف حالاته أثناء فترة الحيض: نظراً لتوقف أجهزة المقاومة ونقص المناعة، فتنمو الميكروبات وتتكاثر، ومن هنا يكون الأذى الذي نهى القرآن عنه.

الاتصال بالمرأة جنسيّاً أثناء فترة الحيض تقديراً لحالتها المرضية ومراعاة لاستعداد الجسم لخروج البويضة من المبيض تمهيداً للحمل بخلق جديد. والمباشرة في تلك الحالة انصراف عن الفطرة السليمة النظيفة ولا تحقق إلا لذة حيوانية لا هدف منها ولا غاية؛ لأن هدف العلاقة الجنسية السليمة هو النسل وامتداد الحياة.

وهناك صور أخرى للأذى الذي يلحق بالمرأة بسبب الجماع في فترة الحيض. من ذلك أن الأوعية الدموية المبطِّنة لجدار الرحم تكون مفتوحة في تلك الفترة، وقد تؤدي انقباضات الرحم التي تحدث أثناء الاتصال الجنسي إلى دخول أجزاء من محتويات تجويف الرحم إلى هذه الأوعية الدموية المفتوحة ومنها إلى أجزاء الجسم المختلفة حيث تنمو وتسبب أوراماً ينتج عنها نزيف وقت العادة الشهرية. وقد اكتُشفت حالات إصابة بالالتهاب البريتوني نتيجة الاتصال الجنسي أثناء الحيض بسبب دخول البكتريا عن طريق قناتيِّ فالوب إلى داخل الفراغ البطني. ليس هذا فحسب، بل إن الالتهابات قد تمتد إلى قناتيْ فالوب فتسدّهما أو تؤثر على شعيراتهما التي تدفع البويضة من المبيض إلى الرحم. وانسداد قناتي الرحم من الأسباب الرئيسية المُفْضية إلى العقم أو إلى الحمل خارج الرحم، وهذا من أشد أنواع الأذى؛ لأنه يؤدي إلى انفجار إحدى القناتين أو كلتيهما فتسيل الدماء في سراديب البطن وتحدث الوفاة. وقد يمتد الالتهاب من ناحية أخرى، إلى القناة البولية ومنها إلى الجهاز البولي، وهذا أحد أسباب السرطان الذي يلتهم عنق الرحم.

وليس الأذى الذي يصيب الرجل من جراء الاتصال الجنسي أثناء فترة الحيض بأقل من الأذى الذي يصيب المرأة؛ ذلك أن انتقال جزء

من دم الحيض غير المتجلط - الذي هو خليط من خلايا بطانة الرحم والدم وإفرازات الغدد وبه كثير من الجراثيم والميكروبات السبحية والعنقودية - إلى القناة البولية في الذَّكَر يسبب حالة تشبه السيلان نتيجته نزول إفرازات كثيرة من فتحة القضيب بصفة مستمرة، ويحدث التهاباً ينتقل إلى البروستاتا والمثانة والحالبيْن وإلى حوض الكُلَى ثم الكُلَى نفسها، وعند إصابة الحويصلتين المنويتين يتضاعف الألم عند التبول والتغوط (التبرز) وأثناء المشي أو عند الجلوس. ولما كان الرجل هو العنصر الفاعل غالباً في عملية الجماع فإن الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها وجهت النداء للرجال دون النساء، وخاطبت فيهم منطق العقل والتروي، وعدم الاستسلام للشهوات والنزوات التي تهيج فيه السعار الحيواني المجنون، وتصرفه عن نواميس الفطرة السليمة التي أودعها الله في الإنسان[1].

وهكذا تتجلى لنا روعة الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم منذ نزل به الوحي على خاتم الأنبياء ليضع أصولاً عامة لعلم الطب الوقائي ومحاذير الاتصال الجنسي، وقد تأكد حديثاً أن مرض "الإيدز" القاتل ينتقل أثناء الجماع في فترة الحيض.

لقد أوضحنا حتى الآن مختلف أنواع الأذى الذي يقع على الرجل والأنثى نتيجة الاتصال الجنسي أثناء فترة الحيض، ويكفي أن نذكّر هنا بما هو معروف طبيّاً من أن دم الحيض عبارة عن سموم ضارة وخلايا بشرية ميتة، وأن التطهر من دم الطمث ضرورة شرعية وضرورة صحية في الوقت نفسه. فالمسألة الجنسية ليست متروكة للأهواء والانحرافات، وإنما هي مقيَّدة بأمر

---

(1) هناك من الأزواج من يعتقد خطأ أن الجماع في يوم التبويض مع بداية نزول الحيض كافٍ للتغلب على مشكلة عدم الإنجاب، ويعتمدون في ذلك على قياس درجة حرارة الزوجة يوميّاً وعمل رسمٍ بياني لها لتحديد يوم التبويض الذي ترتفع فيه درجة الحرارة قليلاً. والحقيقة أن العقم له أسباب كثيرة عند الرجل والمرأة على حد سواء.

الله سبحانه وتعالى؛ لأنها تكليف محكوم بكيفية وحدود، والمباشرة في الطُّهر تحقق اللذة الطبيعية والغاية الفطرية في آن معاً، فليس الهدف من الجماع هو مطلق الشهوة، وإنما الغرض هو امتداد الحياة بالحلال الذي كتبه الله إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ولا يخفى كذلك ما تتضمنه الآية الكريمة من معانٍ وآداب في التربية الجنسية، تهدف إلى تعويد الرجل على الصبر وتدعو إلى عدم الإسراف في ممارسة الجنس، انطلاقاً من القاعدة الشرعية العامة التي ينص عليها قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (سورة الأنعام: 141). فلا يقتصر التوجيه على عدم الإسراف في المال أو الطعام، وإنما يشمل عدم الإسراف في الاستمتاع الجنسي وغيره من أمور الحياة. وقد ثبت علميّاً أن الإسراف الجنسي له تأثير ضار على الغدد التناسلية، حيث يسبب الالتهاب الاحتقاني للبروستاتا والحويصلة المنوية، فضلاً عن أنه يؤذي جلد القضيب، ويؤدي إلى ظهور بعض الجروح والتشققات السطحية، وفي بعض الأحيان يؤدي الإسراف في الجماع إلى ظهور المنيّ المدمَّم (أي يكون المنيّ مختلطاً بالدم)، وربما يؤدي أيضاً إلى تجلط الدم في الوريد القضيبي وحدوث ظاهرة الانتصاب المؤلم المستمر التي تستدعي تدخل الجراحة. كما أن مضاعفات الإسراف في الجماع تسبب الوهن الدائم للجسم، وعدم القدرة على التركيز الذهني واضطراب الشعور والحواس، وصعوبة الإدراك، وظهور حالة الحيرة والارتباك. ولعل في كل هذا ما يبين أن الحث على الاعتدال، وعدم الإسراف في جميع الأمور، بما فيها المعاشرة الجنسية، ضرورة يحض عليها الإسلام ويدعو إليها علم الطب الوقائي حماية لصحة الإنسان وحيويته.

وتواصل الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها بيان كيفية المباشرة الجنسية وحدودها، فتدعو إلى إتيان الزوجة في منبت إخصابها وتحرم إتيانها في دبرها وقايةً من الميكروبات العديدة التي توجد في الشرج ولا يوجد مثلها في المهبل وهو باب الرحم. وقد أثبتت الدراسات الطبية الحديثة أن انغماس عضو التذكير في فتحة الشرج يعرضه لأمراض خطيرة مثل التهاب مجرى البول، وغالباً ما يتسلل الميكروب إلى البروستاتا، وقد يسبب له العقم، كما أن الرجل قد يتسبب بدوره في نقل هذه الميكروبات إلى رحم المرأة، ومن ثم قد يتسبب في إصابتها هي أيضاً بالعقم، وفضلاً عن ذلك فإن إتيان المرأة؛ في غير منبت الإخصاب؛ لون من ألوان الشذوذ الجنسي الذي يؤدي إلى فض العلاقة الزوجية. فعضو التذكير في الرجل يتعرض لأمراض تحيق به ضعفاً أدائيّاً في المجال الجنسي، وشرج المرأة يُصاب بالتشقق والالتهابات التي تؤدي إلى أسوأ العواقب، فضلاً عن الأذى النفسي الذي يلحق بالمرأة لإحساسها بافتقاد حقها الطبيعي في الاستمتاع الجنسي الذي لا يتحقق إلا في المكان الطبيعي الذي جعله الله منبتاً طبيعيّاً للإخصاب والتكاثر. وصدق الله العظيم حيث يقول: (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة البقرة: 223)، قال ابن عباس: الحرث موضع الولد. والمقصود من وراء هذا ألا يتحول الجنس إلى متعة هوجاء، وألا يكون هو الغرض الأوحد من أغراض الزواج، فوضع الزواج في الأصل لإنجاب الذرية وإبقاء النوع البشري، ولم تُخلق الشهوة الجنسية إلا لتكون باعثة على إتيان الولد.

وهكذا نقف بفضل العلم على حقيقة ما يفرض الله من فروض ليطهر عباده الذين يتوبون حين يخطئون ويعودون إليه متطهرين مستغفرين. إنه

توجيه إلهي في التربية الجنسية، أبرزه الله تعالى في حقائق يكتشفها العلم، ويدعو إلى الإلمام بمعرفتها؛ فآية واقعية أصدق وأدق وأشمل مما تثيره آيات القـرآن الكريم للارتقاء بحياة الإنسان، ومن أصـدق من الله حديثاً؟! (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (سورة الملك: 14).



الفصل السادس

أفعال حرَّمتها الشريعة



1 - الإجهاض

قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة الأنعام: 151).

تحدد هذه الآية الكريمة بعض ما حرم الله على عباده، وتذكر من بينها جريمة قتل الأولاد ذكوراً وإناثاً بسبب الإملاق (أي الفقر) الواقع فعلاً، كما تحرم آية أخرى نفس الجريمة التي تُرتكب خشية الإملاق (أو الفقر) الذي لم يقع بعد، ويُحتمل حدوثه مستقبلاً، وهي قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً) (سورة الإسراء: 31)، وتشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى أن إزهاق الحياة ليس من أسباب علاجٍ الفقر، فهذه الجريمة دوافعها اقتصادية بحتة، وضحاياها الأولاد ذكوراً وإناثاً، وهي غير جريمة "الوأد" وهي قتل الإناث أحياء دون الذكور، وكان يقترفها الرجال في الجاهلية دون النساء خشية العار والهوان مصداقاً لقوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ) (سورة النحل: 58، 59).

ويرى بعض المفسرين أن المقصود بجريمة قتل الأولاد لدوافع اقتصادية هو إحداث الإجهاض. وقد حرمها الله تعالى على نحو ما ذكر، وأمر رسوله أن يبايع المؤمنات على ألا يقترفنها، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الممتحنة: 12).

مـن ناحية أخرى قرر الإسلام أن زواج الذكر بالأنثى هو مصدر التكاثر والذُّرية كما صرح بحق الذرية في الأبوة الحقيقية، فقال تعالى: (وَاللّه جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّه هُمْ يَكْفُرُونَ) (سورة النحل: 72)، وقـال عز مـن قائل: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللّه فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللّه غَفُوراً رَّحِيماً) (سورة الأحزاب: 5)، وقال سبحانه: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللّه لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) (سورة المجادلة: 2).

وتقـرر هـذه الآيات الكريمـة أهميـة التكاثـر والذرية عن طريـق الزواج الشرعي بين الذكر والأنثى. وتدل آيات القرآن الكريم في مواضع كثيرة على أن الأولاد من النعم وزينة الحياة الدنيا. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمـة الله – عـز وجل – في خلـق الذكر والأنثى؛ داعياً إلـى مثل ما دعت إليه الرسـل من العناية بالتناسل والتكاثر بقولـه عليه الصلاة والسلام: (تزوجوا الـودود الولـود فإني مكاثر بكـم الأمم يـوم القيامة)[1]، وقولـه عليه الصلاة والسلام: (تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة)[2].

والكـثرة التي يتطلبها الإسلام لا تكـون بالكم وكثرة العدد المهمل؛ وإنما بالكيـف وحسن الأداء. ذلك أن الشريعـة الإسلامية تتطلب أن تكون الكثرة قويـة لا هزيلـة بحيـث تحفظ للأمـة قوتها وعزتهـا ومنعتها، ومـن ثم فإن

(1) رواه أحمد عن أنس.

(2) رواه الحاكـم ورواه الإمـام أحمد وصححـه ابن حبان. انظر: سبل السلام شـرح بلوغ المرام للصنعاني، ج3 ص 145.

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحث على حسن رعاية الأبناء وتربيتهم وتعليمهم من أجل خدمة مجتمعاتهم، بحيث لا تكون الكثرة مصدر ضعف وهوان للأمة، حتى يصدق عليها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها) قيل: أَمِنْ قلة يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: (لا، بل أنتم كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل)[1] (سنن أبي داود: 426/2) [2].

من ناحية أخرى، يتضح من استقراء آيات القرآن الكريم أنه لم يرد فيه نص يحرّم منع الحمل، أو الإقلال من النسل، وبمطالعة كتب السنة الشريفة وأقوال الفقهاء نجد أن الإسلام قد أباح العزل، وهو أن يقذف الرجل بنطفته ومائه خارج مكان التناسل (الرحم) بزوجته، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعزلون عن نسائهم وجواريهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك بلغه ولم ينْه عنه[3].

وقد توصل الطب الحديث إلى طرق علمية كبيرة تقوم مقام العزل، وتنطبق عليها رخصة رسول الله عليه الصلاة والسلام في العزل، فمنها اللولب والغشاء الحاجز والحبوب وغيرها من الوسائل التي تمنع الحمل منعاً مؤقتاً دون ضرر بأحد الزوجين أو كليهما، ودون تأثير على أصل الصلاحية للإنجاب.

وتجدر الإشارة إلى أن تنظيم النسل يخضع لظروف المكان والزمان من حيث التحديد أو الإكثار، فيكون الأول (التحديد) مطلوباً في البلدان

---

(1) غثاء السيل هو ما يعلو فوق الماء من زبد ليس له بقاء ولا احتمال. وإنما هو رغاوات ليس إلاّ. والمقصود به ما يسوقه السيل أمامه من النفايات وبقايا الأشياء التافهة.

(2) كما رواه مسلم عن جابر ورواه البخاري أيضاً.

(3) رواه مسلم عن جابر ورواه البخاري أيضاً.

والمجتمعات التي تهددها المجاعات لقلة خيراتها ومواردها عن تعداد السكان فيها، ويكون الثاني (الإكثار) مطلوباً في المجتمعات الغنية التي لا تعاني من مشكلات سكانية.

كذلك يجب التفريق بين تنظيم النسل عن طريق وسائل منع الحمل، أي الحيلولة دون حدوثه ابتداء بالعزل أو الحبوب أو اللولب.. إلخ، وبين الإجهاض أو القضاء على الحمل وإسقاطه بعد وقوعه، فالأول جائز شرعاً، على نحو ما أوضحنا بخلاف الآخر، وهو الإجهاض، فهو ممنوع شرعاً وهو ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن ذلك هو الوأد الخفي).

ويشترط فقهاء الشريعة الإسلامية في جواز تنظيم النسل بمنع الحمل فترة مؤقتة بموافقة الزوجين، فلا ينفرد به أحدهما مستبدّاً بالرأي. وإذا كان هذا هو الأساس فإن القانون الوضعي لا يصلح أداة لتنظيم النسل؛ لأن الإرادة لا يتحكم فيها القانون، إذ إن لكل فرد ظروفه التي يقدرها وعليه أن يحسن التقدير. وهذا التقدير الحسن يأتي بالتوعية والإعلان للناس، وعلى الدولة أن تتخذ الوسائل الكفيلة بالإرشاد وحسن التوعية وجديتها. ويحرم لأي واحد من الزوجين أو كليهما أن يلجأ إلى التعقيم القاطع للإنجاب بدواء أو بجراحة بحيث يترتب عليه عدم الصلاحية للإنجاب مستقبلاً، إلا لضرورة، كأن يكون أحد الزوجين، أو كلاهما، مصاباً بمرض موروث، أو ينتقل بالوراثة مضرّاً بالأمة حيث ينتقل بالعدوى، وتصبح ذريتهما مريضة لا يُستفاد بها، بل تكون ثقلاً على المجتمع. فمتى تأكد ذلك جاز تعقيم المريض، بل ويجب تعقيمه دفعاً للضرر؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح في قواعد الشريعة الإسلامية، ويجب أن يستقر في الأذهان أن مرجع الأحكام الشرعية ومصدرها – من حيث الحِلّ والحُرْمة والجواز والمنع – هو كتاب

الله تعالى (القرآن الكريم) وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، أما العلم بإنجازاته وتقنياته فيُستدعى فقط على سبيل الاسترشاد لما فيه خدمة الدين الحنيف وبيان أحكامه الشرعية.

ويأتي تحريم الإسلام للإجهاض انطلاقاً من حرمة حياة الإنسان حتى وإن كان جنيناً، وتختلف آراء الفقهاء والأطباء المسلمين بشأن تحديد بداية الحياة بالنسبة للجنين، فهناك من يرى أن الحياة تبدأ من لحظة الإخصاب، خصوصاً أن التقنيات الحديثة قدمت الأدلة على حركة الجنين منذ البدايات الأولى للحمل واعتباره كائناً حيّاً منذ لحظة الإخصاب، وهناك من يعترض على هذا النوع من الحياة ويشبهها بالحياة التي يوصف بها النبات، وليست الحياة المرادة في المصطلح القرآني والموجودة في الإنسان وهو جنين بعد نفخ الروح في نهاية الشهر الرابع من الحمل، وذلك استناداً إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يخبر عن بدء الحياة في الجنين ومنحه صفة الآدمية وخصائصها بعد مرور مئة وعشرين يوماً على بدء الحمل: حيث يقول: (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيُؤمر بأربع كلمات، ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح). ويحاول فريق ثالث أن يوفق بين الرأيين فيذهب إلى أن الحياة تبدأ منذ التصاق البويضة الملقحة بجدار الرحم بعد ستة أسابيع من لحظة الإخصاب، أي أن أول مراتب الحياة للجنين يتحقق بالعلوق في جدار الرحم حيث تزداد فيه إمكانية الحياة، وتزداد حرمة الجنين كلما تطور ودخل مراحل النمو الكامل.

ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات بشأن تحديد بدء الحياة في الجنين فإن علماء الشريعة في زماننا يأخذون بالمعطيات الطبية والعلمية

الجديدة ويقررون أن حياة الإنسان محترمة في كافة أدوارها منذ بداية الحمل، ولا يجوز إهدارها بالإجهاض إلا في حالات الضرورة القصوى التي تجعل استمرار الحمل تهديداً لحياة المرأة، فإن الأم في الشريعة هي الأصل والجنين هو الفرع، ويمكن التضحية بالفرع إذا كان هو السبيل الوحيد لإنقاذ الأصل؛ عملاً بالقاعدة الشرعية التي تقول باختيار أخف الضررين إذا استحال دفعهما معاً. وهنا تقع المسؤولية على الطبيب المعالج وحكمته وتقديره للضرر الذي يستوجب الإجهاض، كأن تكون المرأة عسرة الولادة، ويرى الأطباء المختصون أن بقاء الحمل في بطنها ضار بها، أو أن تكون الأم مصابة بأورام خبيثة تستدعي إزالة الرحم أو حشوه بأنابيب الراديوم، أو حالات الارتفاع الخبيث في ضغط الدم وبعض الأمراض الطبية.

والمهم في كل هذا أن حياة الجنين وديعة استأمننا الله عليها وعلى رعايتها قبل أن تولد وبعد أن تولد، وحسابنا في ذلك على الله.

2 - زواج الأقارب الملتصقين

كان الزواج بالأقارب شائعاً عند كثير من الأقوام والشعوب، ولما جاء الإسلام حرَّم زواج الأقارب الملتصقين لحِكَم نفسية واجتماعية وطبية ووراثية أوضح العلم الحديث جوانب كثيرة منها، وحبَّب إلى المسلمين الزواج بالأباعد في النسب.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ

أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً) (سورة النساء: 23).

تشـير هذه الآية الكريمـة صراحة إلى تحـريم زواج الأقارب الملتصقين لحكـم نفسية واجتماعية وطبية، أوضـح العلم الحديث جوانب كثيرة منها. أمـا الحكمة النفسيـة والاجتماعية فهـي أن الزواج عادة يقـوم على الألفة والمودة، وزواج الأباعد تنمو في ظله مثل هذه المعاني ويتسع نطاقها مما يعود على الأسرة بالهناء والاستقرار.

وأمـا الأسباب الطبيـة فمنها أن زواج الأقارب يُنتج ذُريـةً أفرادُها على استعداد كبـير للأمراض والتشوّه بعيوب خِلْقية، وأنَّ استمرار تزاوج الذرية بالأقـارب يقضي إلى إقلال درجة التناسل حتى لقد تصل أخيراً إلى العقم، كمـا يـؤدي إلى إضعـاف السلالة، بينما يُنتـج زواج الأباعد ذريـة تفوق أيّاً مـن الأبوين علـى السواء، كذلـك أثبتت أبحـاث العلمـاء أن زواج الأقارب يزيـد من احتمال ظهور الصفـات والأمراض الوراثية المتنحية التي يحصي منهـا المتخصصون ما يزيد عـن مئة مرض معروف، مثـل البرص الوراثي والبـول الأسود وبعض أمراض التهاب الشبكية وغيرها. ودلت الإحصائيات على أن الصفـات الوراثية السائدة والمتنحّية التـي يحملها الإنسان تتكاثف بالـزواج من الأقـارب وتظهر بصـورة جَليّة وبنسبة أكبر مـع مرور الزمن، ويكـون الأمر علـى درجة كبيرة من الخطـورة إذا كانت هـذه الصفات من النـوع الـرديء كالعادات السيئـة والسلوك الشاذ المرذول، هـذا فضلاً عن الأمراض الوراثية التـي تزداد فرصة ظهورها وتأكيدها؛ لأنها تصبح مثبتة لصيقة بالجينـات (وحدات الوراثة) في الصبغيـات أو "الكروموسومات" التي تحدد صفـات الإنسان وطباعه وسلوكه وقابليتـه للأمراض. ومن هذه

الأمراض الربو وارتفاع ضغط الدم ومرض السكر وبعض أمراض القلب ومرض الحساسية وأمراض الجهاز العصبي مثل الصرع وكثير من العيوب الخِلْقية، ومنها أيضاً مرض الزهري الذي يُورث إلى أكثر من ثلاثة أجيال ومرض الهيموفيليا الذي يسبب النزف المستمر من أي جرح (مرض سيولة الدم) وأمراض التخلف العقلي والذهني.

كما أثبتت ملاحظات الأطباء حديثاً أن الاستعداد للإصابة بسرطان الثدي قد ينتقل عن طريق الرضاعة، ذلك أنه اكتشف أن الأم التي تنحدر من أسرة حدثت بها حالات سرطان الثدي قد تكون حاملة لفيروس المرض وتنقله لأي طفل تقوم بإرضاعه فينشأ مصاباً به، ويمكن أن يورثه هو الآخر لذريته[1].

وقد تنتقل كل هذه الأمراض عن طريق الآباء دون أن تظهر أعراض المرض على الشخص الذي يحملها إلا إذا صادف أن كان الأبوان على علم بوجودها عند الأجداد.

وخلاصة القول إن زواج الأباعد يقلل من توارث الأمراض والعيوب الخِلْقية؛ ولهذا جاء في الأثر (اغتربوا ولا تضووا)، أي تزوجوا في الأباعد ولا تتزوجوا في الأقارب، لئلا تسببوا ضعف نسلكم وهزاله. ويتفق هذا المطلب الإسلامي مع العلم اتفاقاً كاملاً؛ لأن الإسلام حريص على خلق إنسان قوي سليم البنية والعقل خالٍ من الأمراض؛ لأن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف. وقوة المؤمن تتمثل في قوة عقيدته وإيمانه بخالقه وبتعاليم دينه،

---

(1) في أوائل السبعينات من القرن الماضي قام فريق من علماء الأورام الأمريكان بإحصاء حالات سرطان الثدي في مدينة بومباي بالهند، حيث توجد قبيلة "البارسي" المعروفة كمجتمع مغلق يشيع فيه زواج الأخوات من الرضاعة ولا يتم الزواج فيه إلا بين أفراده. وقد تبين أن سرطان الثدي يمثل خمسين في المئة من حالات الإصابة بالسرطان بين الإناث.

وتتمثـل أيضـاً في قوتـه بدنيّاً ونفسيّـاً وعقليّاً حتـى يسهـم في إقامة الدولة الإسلاميـة القوية. ولعل هذا هو ما يعمق فهمنا لما جاء في الحديث الشريف (تخـيّروا لنطفكم فإن العـرق دسّاس)، ففيه تنبيه إلى تدقيق الاختيار عند الـزواج حتى تضمن أجيـال طاهرة خالية من الأمراضـ الوراثية، وهذا ما تعنيه كلمة العِرْق من تسرب الأمراض الوراثية من أحد الزوجين أو كليهما، والدسـ فهـو التسرب إلـى خلايا الجنين ومـا ينشأ عنه مـن أمراض. كما يحذرنـا عليه الصلاة والسلام من أمراض البيئـة ويدعو إلى عدم الاندفاع نحو المرأة الجميلة التي تجذبنا بحسنها الظاهر لتصرفنا وتلهينا عن كشف أصلهـا السيئ وبيئتها الدنيئة، فيقول: (إياكم وخضراء الدّمن)، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله، قال: (هي المرأة الحسناء في المنبت السوء).

فمـا أحوجنا إلى فهم مثل هـذه التعاليم الوقائية التي رفع لواءها الإسلام الحنيـف قبـل إنشاء مكاتب فحص الراغبين في الـزواج بأكثر من أربعة عشر قرناً، وما أحوجنا إليها أيضاً في هذا العصر الذي تفشت فيه الأمراض العقلية والنفسية والجسمية بسبب الممارسات الشاذة والأوبئة الاجتماعية المختلفة.

3 - شرب الخمر

قـال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَـانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَـا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) (سورة المائدة 90، 91).

الخمـر في الفقه الإسلامي هي كل مُسْكِر سواء كان متخذاً من الفواكه، كالعنب والتمر والزبيب، أو مـن الحبوب، كالحنطة والشعير والذرة والأرز،

أو من الحلويات كالعسل. ويدخل في تركيب الخمر مواد كيميائية كثيرة من بينها مادة الغول (الكحول) الإيثيلي التي تتسبب في جميع الأمراض والأضرار الناتجة عن تعاطي الخمـور بأنواعها. فجميع المشروبات الروحية، كالعرق، والشمبانيا، والويسكي، والبراندي، والكونياك، والفودكا، والبيرة، تحتوي على نسب مختلفة مـن مادة الكحـول، باعتبارها علة الخمور كلها. وتكمن خطـورة الكحول في أنه يُمتص بسرعـة فائقة عن طريق مخاطيـة الفم والمعدة، وعـن طريق الرئتين، ويعطي تراكيز عالية في الجسم خلال فترة زمنية وجيزة.

وقـد أجمل الله - سبحانـه وتعالى - الآثار الضارة للخمر في صدِّها للمسلم عـن ذكـر الله واتباع أوامره ونواهيه بصفة عامة، وعـن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر بصفة خاصة.

وجـاء العلم بأجهزته ونظرياته ليوضح للناس تدريجيّاً الحكمة من تحريم الخمور والمواد الكحولية بعد أن تأكد تأثيرها الضار على أجهزة الجسم المختلفة ووظائفهـا؛ لذلـك يجب التذكـير دائماً بأضـرار الخمور حتـى يحذرها المؤمن ويهجرهـا كل من وقع بـين براثنها، عسى أن يتدارك نفسه وينتشلها قبل حدوث الكارثة.

وفي استعراض سريـع لما كشفه العلـم في هذا المجال نشير إلـى أثر الخمر السيـئ على الجهاز العصبي، حيث يترتب عليه ضعف مراكز المخ الراقية العليا التي تميز الإنسان عـن الحيوان، مثل ما يختص بالخجل والخوف والحكم على الأشيـاء ونتائجها، والقدرة على الكلام والحركة. وتظهر الاضطرابات النفسية بدرجـات متفاوتة متمثلة في الغناء، والصيـاح والثرثرة، وزياغ البصر، وازدواج الرؤيـة وعدم وضوحها. وإذا ما أكـثر الشارب من الخمر فإن الخمول يمتد إلى الأعصاب الأخرى التي تختص بالتفكير والوعي والحواس؛ مما يجعله غير قادر

علـى التفكير السليم، وغير مكترث بما حوله، فينتقل الشخص من حيث سلوكه مـن مرتبة الإنسانية إلى حضيض البهيمية، وإذا استمر في إدمانه فإن مداركه الحسية والعقلية تستمر في التدهور إلى أن يصل إلى دور الشلل والجنون. وكثيراً ما يقع الخلاف والشجار بين شاربي الخمر فيولد بينهم العداوة والبغضاء.

وللكحول في بـادئ الأمر تأثير المواد المنبهة؛ لأنه يمدد الأوعية الدموية التي تتصـل بالمخ، وبذلك تزداد كميـة الدم ويحدث التنبيه الوقتـي كشعور كاذب لا يلبـث أن يتلاشى سريعاً ليستولي الخمول والجمود علـى المخ، ويتبلد الإحساس والشعور، وتضعف تبعـاً لذلك قوة ضبط المخ لعمل العضلات. ذلك أن الرسائل التـي يتلقاها المخ من الحواس أو التـي تصدر عنه إلى العضلات يتأخر وصولها إلى مقرها في الوقت المناسب، وتصبح هذه الرسائل غامضة غير واضحة بتأثير دوران سمّ الكحول في الدم[1].

وقـد أثبتت التحاليل الكيميائية والدراسات الطبية والإحصائية أن أعراض التسمـم الكحـولي الحـاد (المعروفة بالسُّكْـر) تظهر عند نسبـة (0.5 %) من الكحـول في الـدم، وتزداد الأعراض كلمـا زادت هذه النسبـة لتنتهي بالسبات، والموت عند نسبة (50 %) من الكحول في الدم. وإذا تعرض السكران للبرد أثناء سباتـه فقـد يموت بتثبيط التنفـس وتوقف القلب، كما أنه قـد يموت باستنشاق بعض المواد التي يتقيؤها.

إن الخمر تقتل في شاربها كل العواطف الإنسانية السامية كالحنان والعطف والأبـوة والواجـب، وتفقده احـترام آدميته؛ فـلا يستطيع أن يتلقـى تكاليف ولا يتحمـل مسؤوليات؛ ومن ثم يكـون فاسقاً لا يُؤْمَن لحديثـه أو كلامه ولا يُعتد له بشهادة.

---

(1) تؤثر الخمر أيضاً على جهاز الأذن الداخلية المختص بحفظ توازن الجسم.

وقد أجمل الحق - سبحانه وتعالى - الآثار الخطيرة المترتبة على تناول الخمر في وصفها بأنها رجس من عمل الشيطان. وإذا كان البعض يرى فيها شيئاً من المنفعة المادية من الناحية التجارية، فإن آثارها الضارة على جميع أجهزة الجسم أكبر بكثير؛ بل إن المؤتمر الدولي للأطباء سنة 1929م، أوصى بعدم وصف الخمر كدواء، وقرر أن انتشارها يهدم سعادة الأمم ويقوض أخلاقها.

وقد سبق أن تحدثنا عن الآثار الضارة التي تحدثها الخمر في الجهاز العصبي لشاربها، ونواصل استعراض باقي الآثار التي كشف عنها العلم والمتعلقة بالجهاز الهضمي، فنبدأ بالإشارة إلى ما تسببه الخمر من التهاب للأغشية المخاطية؛ مما يترتب عليه عدم استكمال هضم المواد الزلالية عند مدمني الخمور، كما أنه يُحدث ارتخاء وضعفاً في حركة العضلات المعوية، وهذا من شأنه ألّا يساعد على سرعة انتقال المواد الغذائية من المعدة إلى الأمعاء، فضلاً عن ازدياد نسبة الحامض المِعدي الذي قد يسبب الحموضة ويفضي إلى الإصابة بالقرحة المعدية والقيء. كما تحول الخمور دون انتفاع الجسم بالفيتامينات، وبخاصة فيتامين "ب" المركب، وينتج عن كل هذا فقر الدم الخبيث الذي يفضي لسرطان المعدة. وقد وُجد أن (90 %) من مرضى سرطان المعدة والمريء هم من مدمني الخمور.

ولما كان الكبد هو المصنع الرئيسي في الجسم والمعمل المختص بتخليص الجسم من جميع السموم التي تدخله، ويقوم بطردها عن طريق الدم، كما أن الكبد هو مخزن الأغذية الذي يمد الجسم بما يحتاجه منها عند الحاجة إليها؛ فإن أي تأثير ضار بالكبد ينعكس على الحالة الصحية العامة. ويكفي أن نعلم أن الخمر تسبب تأثيراً سامّاً مباشراً على الكبد، قد يحدث في غضون أربع ساعات فقط من تعاطيها. ويظهر فساد وظائف الكبد في

هبـوط "الجليكوجـين" وتزايد الدهنيـات ونقص كفاءة تمثيـل الجلوكوز، ويعقب ذلك تضخمه وتشحمه وقلة إفرازه، ثم تليّفه وعدم مقدرته على أداء وظائفـه الحيويـة. وإذا فقد الكبـد وظيفته وأصبح غير قـادر على تخليص الجسم من المواد السامـة فإن بقية أعضاء الجسم وأجهزته تهلك تدريجيّاً من جراء تأثير هذه المواد السامة، وغالباً ما ينتهي الأمر بالوفاة.

كذلـك يـؤدي تعاطي الخمر إلى حـدوث التهـاب بالبنكرياس، قد يكون حـادّاً أو مزمناً، وتكون نتيجته فقدان خلايـا البنكرياس قدرتها على إفراز الهرمونـات والأنزيمـات ويحـدث مرض السكـر مصحوباً بهـزال شديد نتيجـة لعدم قدرة الأمعاء على امتصاص الدهنيات. وتليف الكبد والتهاب البنكرياس مـن الأمراض التي لا يمكـن الشفـاء منها؛ حيـث إن التدخل الجراحـي أو العلاج الباطني إنما يهدفان إلى الحـدّ من الأعراض وتفادي المضاعفـات فقط، ولكن التليف والقصور في الوظائف ليس هناك من سبيل إلى الشفاء التام منهما.

وإذا تطرقنـا إلى الكُلْيتين وتأثير الخمر عليهما فإننا نعلم أن الكُلْية هي التـي تقوم بتجميع المواد السامة التي تصـل إليها عن طريق الدم وتطردها مع البول. فإذا تسمم هذا العضو نفسه من تأثير الكحول، فإنه يفقد القدرة علـى أداء وظيفته، بـل يصبح مصدر خطر على الجسـم، حيث يتحول إلى كتلـة دهنية لا قيمة لها ولا وظيفة، وغالباً ما ينتهي فشل الكُلْية بالوفاة، وهو مـا يُسمى بمرض "البولينـا"؛ حيث ترتفع نسبة مـادة البولينا بالدم لعدم قـدرة الكُلْية على التخلص منها وإخراجها، فتؤثر هذه المادة على المخ وتقتل خلاياه. وأحياناً يؤدي إدمان الخمر إلى تكون حصيات كُلوية مزدوجة.

وقـد لوحظ أن تنـاول الخمر يتبعه إفـراز كمية كبيرة مـن البول شديد

الحموضــة. ويرجع ذلك إلى هبــوط في الأعصاب المركزية، وليس إلى تأثير علــى الكُلــى؛ ولذلك لا تُعتـبر الخمر مدرة للبــول كما يعتقــد البعض، وإذا زادت الكميــة يكثر إفراز الماء من الكُلى بينما يقــل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم نتيجة لقلة إفرازات الغدة الكظرية.

ويواصــل العلــم كشفــه لمقاصــد الإســلام مــن تحــريم الخمــر - أم الخبائث - ويوضح آثارها الضارة على باقي أجزاء الجسم، فإذا نظرنا إلى الجهاز الدوري الدموي والتنفسي نجد أن الكحول يحدث اتساعاً في الأوعية الدموية؛ مما يترتب عليه ارتفاع في ضغط الدم، وهو من الأمراض الخطيرة التــي قد تــؤدي إلى هبوط في القلــب أو انفجار في الشعــيرات الدموية بالمخ محدثاً نزيفاً قاتــلاً، أو انفجاراً في الشعيرات الدموية بالعين محدثاً فقدان حاســة البصر، أو انفجــاراً في الشعيرات الدموية بــالأذن الداخلية محدثاً صممــاً لا علاج له. وقد تؤدي الخمر إلى الإصابة بنوع من الصمم العصبي نتيجة تأثر العصب السمعي بالسموم الناتجة عن هذه المادة الكحولية.

ويحــدث كذلــك أن تخلف الكحوليــات تأثــيراً سامّاً علــى عضلة القلب مما يعوقها تدريجيّاً عــن القيام بوظيفتها على الوجه الأكمل، وينتهي الأمر بعجزهــا التــام. وهو ما يُعــرف بهبوط القلب الــذي تظهر آثــاره وأعراضه في سرعــة ضيق التنفس عقــب المجهود العادي، واحتقــان في الرئة والكبد، وارتشاحــات تحــت الجلد تمتــد تدريجيّاً إلــى سائر أجــزاء الجسم، وهذه الحالــة تفضي عــادة إلى الوفــاة. وقد ثبت عمليّــاً أن تنــاول بضع جرعات صغــيرة من المشروبات الروحية القوية خلال أربع وعشرين ساعة يؤدي إلى زيــادة عدد ضربات القلب عن المعدل الطبيعــي بمقدار اثنتي عشرة دقّة في الدقيقة، وهذا العمل الإضافي للقلب يؤثر في عضلته وأعصابه.

وإذا كان الله - سبحانــه وتعالى - قد خلق لنا الشرايين بمرونة مناسبة تتحمل التغيرات والضغوط المختلفة، فتضيق وتتسع حسب ما تقتضيه حاجة الجســم إلى كميــات الدم الموجــودة بها، فــإن المشروبــات الكحولية تسبب تصلبــاً في جدران الشرايــين، وتفقدها القدرة على المرونــة، ويصحب هذا التصلــب ضيق تدريجي في الشرايين ربما ينتهــي بانسدادها، فيقف وصول الــدم إلــى العضو المصاب وينتهــي بالتلــف. وإذا كان التصلب في الشرايين التاجيــة نتجت عنه أعراض الذبحة الصدريــة حيث يشكو المريض من آلام وضيق شديدين في الصدر تعوقانه عن الحركة، ويأتي الألم عقب المجهودات العضليــة أو الانفعــالات النفسية فينقطع الدم فجــأة عن عضلة القلب، وقد تحدث الوفاة مباشرة على الفور.

وإذا كان التصلــب في شرايين المخ نتجــت عنه أمراض عصبية كضعف الذاكــرة وانحطاط القوى العقلية والشلــل النصفي. وإذا حدث التصلب في شرايــين الأذن الداخلية نتج عنــه الصمم العصبي والــدوار. أما إذا حدث التصلب في شرايين العين نتج عنه ضعف في الإبصار قد يفضي إلى العمى.

وبالنسبة لتأثــير الكحوليات على الجلد، فإنها تحــدث اتساعاً مؤقتاً في الأوردة الدمويــة الموجودة بالجلد، حيــث تندفع إليها كميات كبيرة من الدم تسبب ارتفاعــاً في كمية الحرارة وشعوراً بالــدفء والانتعاش، خصوصاً في الأجواء الباردة. واتساع الأوعية الدموية هو الذي يضفي على الوجوه لوناً من الاحمــرار يظنه الجاهلون علامة على الصحة أو دليلاً على القوة، بينما هو دم اتسعت أوعيته الخارجيــة فوضح في حين أن الأوعية الداخلية انقبضت، فمقــدار الدم في الجسم ثابــت لم يتغير. أما الشعور بالدفء والانتعاش فهو شعــور مؤقــت لا يلبث أن يزول ويتحول إلى بــرد شديد ورعشة بسبب فقدان

الجسم لحرارته التي فقدها بالإشعاع إلى الجو البارد المحيط به. وإذا فقد الجسم حرارته على هذا النحو تعرض لنزلات البرد والالتهاب الرئوي، وقلّت مناعته، وأصبح عرضة للإصابة بأمراض الجهاز التنفسي كالتهاب الشعيبات الهوائية أو الإصابة بميكروب الدرن الذي يحطم الرئتين.

وإذا كنا سنكتفي بهذا القدر من الحديث عن الآثار الضارة للخمور كما أكدتها أبحاث العلماء، فإنه تجب الإشارة إلى أن مثل هذه الآثار المدمرة تمتد إلى الأجيال اللاحقة، حيث ينشأ نسل فاسد لا يخلو من تشوهات خِلْقية، بالإضافة إلى العلل الأخلاقية.

4 - الفواحش

قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة الأنعام: 151).

الفواحش كلمة تعني كل ما أفحش وتجاوز الحد، ويُقصد بها الزنا في أكثر من موضع، وتهدف إلى عدة معاني نوجزها فيما يلي:

أولاً: الزنا، بمعنى ممارسة الجنس بين رجل وامرأة غير زوجين: يقول تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً) (سورة الإسراء: 32)، أو بمعنى ممارسة الجنس بين ذكَر وذكَر، وهو ما يُعرف باسم اللواط أو الشذوذ الجنسي، كما في قوله تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (سورة النمل: 54، 55).

ثانياً: إشاعة الفضائح الجنسية ونشرها بالوسائل المختلفة من خلال وسائل الإعلام وشرائط الفيديو وانتشار القصص والأفلام الجنسية المثيرة للغرائز. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (سورة النور: 19).

ثالثاً: الترويج لانتشار الفواحش بطرق غير مباشرة مثل الرقص والإغراء ومقارعة الخمر وتناول المخدرات التي تنزل بالإنسان إلى مستوى البهيمية. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة النور: 21).

ومعنى هذا كله أن التبرج والسفور والاختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات الخليعة كلها فواحش تحيط بالفاحشة الكبرى (وهي الزنا أو اللواط) وتؤدي إليها؛ ونظراً لأن هذه الفواحش ذات جاذبية واستدراج للطبيعة البشرية إلى مستنقع الرذيلة، فإن تحريمها جاء بالنهي عن مجرد الاقتراب منها، سدّاً للذرائع ووقاية واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة البشرية. وهنا تظهر عظمة الدين الإسلامي الحنيف كدين وقاية وحماية قبل أن يقيم الحدود ويوقّع العقوبات، فهو لا يريد أن يعرّض الناس للفتنة ثم يكلّف أعصابهم عنت المقاومة. وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على غض البصر وحفظ الفرج والاحتشام في القول والعمل والسلوك. استعلاءً على الرغبة في الاطلاع على المفاتن أو إظهارها، وفي هذا خير ضمان عملي لإغلاق النافذة الأولى من نوافذ الفتن والغواية والحيلولة دون

تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون، وإلاّ فَلَتَ زمام الأعصاب والإرادة، فإما الإفضاء إلى الطيش والجموح دون قيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح والكبت بعد الإثارة.

فلنتأمل إذن قول العليم الخبير في قرآنه الكريم: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (سورة النور 30، 31). وقوله عز من قائل: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) (سورة المعارج: 29، 30)[1].

وهكذا يواجه الإسلام جريمة الفاحشة مواجهة عملية بالدعوة إلى إنشاء مجتمع نظيف يبقى فيه الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً وبقوته الطبيعية دون إطلاق للشهوات بغير حساب، ويجعل الزواج هو الطريق الطبيعي لتصريف الطاقة الجنسية الفطرية والحفاظ على بناء الجماعة وطهارة الحياة الاجتماعية. قال تعالى: (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (سورة النور: 32).

(1) والآيتان أيضاً من سورة المؤمنون (5، 6).

ولا يجوز– بحكم الإسلام – أن يكون الفقر وغيره من عقبات في طريق الزواج سبباً لممارسة الفواحش في أية صورة من صورها، فقد قال تعالى: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة النور: 33). ولما كان الإسلام نظاماً متكاملاً فهو لا يفرض العفة إلّا وقد هيأ لها أسبابها وجعلها ميسورة للأفراد، فأمر جماعة المسلمين أن يعينوا من تقف العوائق في طريقهم إلى النكاح الحلال لكي تجري الحياة على طبيعتها كما أرادها الله تعالى طاهرة نظيفة خالية من الرجس والدنس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف). (أخرجه الترمذي والنسائي).

لقد تحدثنا عن أنواع الفواحش التي حرمها الله بين البشر، لما تناله من كرامة الإنسان والإنسانية، ولما تسببه من فساد وخلل في بناء المجتمع؛ ونعرض الآن لحديث خاص بفاحشة الزنا التي نهى القرآن الكريم عن مجرد الاقتراب منها ووصفها بأنها سبيل سيئ، ليس فقط بسبب ما تؤدي إليه من اختلاط الأنساب ووجود أطفال غير شرعيين أو ما يسلبه من انحلال تتجلى آثاره في كثير من المجتمعات التي شاعت فيها هذه الجريمة وتفشَّت منذ التاريخ القديم حتى العصر الحديث، ولكن أيضاً بسبب الكثير من الأضرار الصحية الخطيرة التي كشف العلم عن مسؤولية الزنا عن حدوثها وانتشارها في المجتمع بطريقة يصعب البرء منها. قال تعالى: (وَلَا

تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً) (سورة الإسراء: 32).

فالزنا يؤدي إلى انتشار الأمراض التناسلية المتنوعة مثل الزهري والسيلان والإيدز وغيرها.

أما مرض الزُّهَري أو "السيفلس syphilis" فسببه الرئيس هو الدعارة السرية، والعلاقة الجنسية المحرمة، والوطء في نكاح محرَّم غير صحيح. ولا يمكن أن يحدث مطلقاً نتيجة وطء حلال أو علاقة جنسية سليمة غير محرمة، فقد اقتضت حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن يكون الزاني والزانية مخزناً أو مستودعاً لذلك الميكروب اللولبي المسبب للمرض، وهو جرثومة تشبه الأفعى بشكلها وحركتها وخبثها، وتحصل الإصابة بسبب ما اعتاد عليه طرفا الجريمة، الزاني والزانية، من ارتياد فاحشة الزنا النكراء، قال تعالى: (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (سورة النور: 3).

وتتجلى في هذا المرض عقوبة الله تعالى، حيث (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) (سورة الرحمن: 41). فالمريض بعد أيام أو أسابيع من جريمته يُصاب ببثرة غير مؤلمة مكان الجريمة، فتظهر قرحة لا تحدث ألماً على الأعضاء التناسلية الخارجية للزاني والزانية، وسرعان ما تختفي هذه القرحة بعد أيام قلائل لتحل الجرثومة في الدم، وبعد سنة أو سنتين تظهر وصمات أخرى تحمل علامات الخزي والعار، وتشمل هذه المرحلة ظهور تضخم في العقد الليمفاوية للجسم بأكمله، وطفح جلدي على هيئة بقع حمراء نحاسية تشبه نخالة الردَّة في بعض أجزاء الجسم، وحدوث آلام مبرحة في العظام والتهابات بحدقة العين.

ويغفل المريض عن مراجعة الطبيب، خجلاً أو إمعاناً في التردي

والانحـــلال، ليستمر المرض وتستمر الجرثومة في الدم، حيث تظهر أعراض المرحلــة الثالثة لتكون وصمة العار الأبدية التــي لا تزول أبداً وتلازم الزاني والزانيــة طيلة فـترة حياتهما لتكون شاهــدة عليهما يوم البعــث مع شهادة جوارحهما، فيســري الميكروب إلى الكبد أو القلب أو المخ، أو حيث يشاء الله له أن يكون، ويُصاب المريض بشلل أو خرف مبكر، أو جنون، أو آفة في قلبه، أو قرحــة في كبده وأحشائه، ويغلب على آثار هــذا المرض الخطير أنها ذات طابــع محطِّم ومهلك للمكان الذي توجد فيــه الجرثومة، فهي تحطم الجلد محدثــة به قرحــات خبيثة، وتحطم عظــام الوجه والحلــق، وتحطم اللسان والحنجــرة محدثة اختناقــاً وحشرجة غليظة مزعجــة في الصوت، وتحطم الأعضــاء الداخليــة كالكبــد والطحال والقلــب، وتحطم الخصيــة، مصنع الإنتــاج الإنساني ومعمل الحياة، وتحطم الجهــاز العصبي فلا يملك اتزاناً ويفقد الإحساس.

والغريب أن جرثومة المرض الزهري لا تتوقف عند الزاني والزانية، فهي تمتد لتشمل نسلاً غير صالح للحياة، فالجنين يموت قبل أن يولد، وإذا قُدر له أن يعيش فإنه يظل حاملاً وصمات العار التي حملها من قبل طرفا الجريمة.

وأمــا مرضــ السيــلان فيسببه ميكــروب كــروي يكمن في مــزج الزناة العصــاة، وينتقل بينهم نتيجة الاتصالات الجنسية غير الشرعية، ولا يمكن أن ينتقل مطلقاً إلى عفيف أو عفيفة.

ومــن الجدير بالذكر أن المرأة تحتفظ بالجراثيم في أعضائها التناسلية لعــدة أشهر أو سنوات، وهذا يشكل خطراً مستمرّاً لنشر الداء. كذلك يمكن انتقــال المرض بالعدوى نتيجة استعمــال أدوات ملوثة به كالمناشف أو ميزان الحــرارة "الترمومــتر". وتظهــر أعراضــ مرضــ السيلان بعــد الجريمة

بيومين أو ثلاثة، حيث يخرج صديد مؤلم من العضو المصاب، ثم تأخذ الالتهابات طريقها إلى بقية أجزاء الجسم وأجهزته البولية والتناسلية. وتحدث تقيحات في غدة البروستاتا والتهابات في قناة الرحم والمبيض، غير الإصابة بالعقم في كثير من الأحيان.

ولابد من الإشارة إلى أن حكمة الله تعالى قضت ألاّ تسبب الإصابة بمرضَي الزهري أو السيلان أية مناعة حيوية، بعكس معظم الأمراض الأخرى. فمن أصيب أول مرة بهذين المرضين قابل لأن يصاب مرة ثانية وثالثة عندما يعود سيرته الأولى على طريق الضلالة.

هذا، ويسبب الزنا أمراضاً أخرى كثيرة مثل القرحة الرخوة أو اللينة التي يكثر وجودها عند الذكور في جسم القضيب أو الصفن أو العانة، وعند الإناث في الشفرين وقرب فتحة الشرج والفخذين، وهي قابلة للتعدد وتسبب آلاماً مبرحة. كذلك يسبب الزنا ما يُسمى بالقرحة الأكالة التي تتميز بشدة تأثيرها وإتلافها المستمر للأنسجة التي حولها مع عدم استجابتها للعلاج التام.

وهكذا تظهر حكمة التشريع الإسلامي بتحريمه للزنا، في ضوء الحقائق التي يقررها علم الطب الحديث.

وننتقل الآن إلى نوع آخر من أنواع الفاحشة أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (سورة الأعراف: 80، 81).

يحدثنا القرآن الكريم هنا عن لون خاص من أمراض الشذوذ الجنسي والانحراف عن الفطرة والفساد في التكوين النفسي والعضوي، وذلك بإتيان الذكور وترك النساء، وهو ما يُعرف "باللواط"، وقد عُرف قوم لوط بهذه الخطيئة المنكرة التي كشف القرآن الكريم عنها في آيات كثيرة مثل قوله

تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (سورة الشعراء: 165، 166)، وقوله سبحانه: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (سورة النمل: 54، 55)، وقوله جل شأنه: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة العنكبوت: 28، 29). وذلك للتغليظ على مرتكبي هذه الفاحشة، ولتنبيه الناس إلى خطورة هذه الجريمة البشعة التي تتقزز منها الأسماع وتنفر منها الطباع وتنحدر بالآدمية إلى أحط درجات السقوط والانحلال.

وما يريده القرآن الكريم من تحريمه اللواط هو تطهير الأرواح من خبث الأهواء وتجنيبها مفاسد العادات وتحذيرها من سلوك طريق الشر، فقد شاءت سنة الله تعالى أن يخلق البشر ذكراً وأنثى متكاملَيْن ومجهَّزَيْن عضويّاً ونفسيّاً للالتقاء السليم الذي يحقق مشيئة الله في امتداد الحياة عن طريق النسل والتكاثر. أما إتيان الذكور للذكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتفق مع فطرة الوجود النقية، ولا يرتبط مع خط الحياة المستقيم في التناسل والتكاثر وعمارة الأرض.

ويُقصد باللواط، من الناحية الطبية، الجماع الشرجي، سواء أكان الملوط به ذكراً أم أنثى، فمن المحرَّم شرعاً على الزوج اللواط بزوجته أيضاً امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة البقرة: 222)، ويمكن إجمال الأضرار التي تسببها ممارسة هذه الفاحشة النكراء فيما يلي:

1 - ينتقل باللواط ما ينتقل بالزنا من الأمراض كالزهري والسيلان والقرحة، بالإضافة إلى الأمراض التي تصيب الجلد كالجرب والقمل، وتُصاب عضلات المستقيم بالارتخاء والتهتك، ويصبح الشرج فاقداً للسيطرة على عملية التغوط (التبرز) بشكل كامل، وقد يصبح المجني عليه متخنثاً إذا لزمته هذه العادة الخبيثة من صغره. كذلك تنتقل العدوى والميكروبات من الشرج إلى قضيب الذكر محدثة التهاب مجرى البول.

2 - الإصابة بأمراض نفسية كالإحساس بالعجز الرجولي والضلال الجنسي اللذين يؤديان إلى شذوذات خُلقية تفضي إلى الشعور بالاستقذار.

3 - أثبتت الأبحاث والدراسات العلمية الحديثة خطورة اللواط على صحة الإنسان، ولاسيما بعد انتشار مرض "الإيدز" بين المصابين بالشذوذ الجنسي، وهو مرض قاتل يقضي على المناعة المكتسبة؛ مما يؤدي إلى تفشي أمراض كثيرة داخل جسم المريض مثل الالتهاب الرئوي وتضخم الغدد الليمفاوية وفقر الدم والسرطان الذي يفضي إلى الموت.

ويتم انتقال "فيروس" هذا المرض القاتل عن طريق سوائل الجسم ومنها اللعاب والدم والسائل المنوي. وقد كشفت تقارير منظمة الصحة العالمية أن فوضى العلاقات الجنسية هي السبب الأول في ازدياد وباء

"الإيـدز" في دول مثـل أمريـكا وبريطانيـا وفرنسا وروانـدا وبوروندي. وإذا كان عـدد مرضـى الإيـدز في العـالم لم يتحدد بدقـة حتى الآن لعـدم توافر المعلومـات الكافيـة لمنظمة الصحـة العالمية؛ فـإن أحدث التقاريـر تؤكد أن الإصابـة بالمرض في أوغندا قد تضاعف لدرجـة جعلتها تحتل المركز الثالث بعد الولايات المتحدة وفرنسا.

ومن عجـب أن تُقام المظاهـرات وتُجمع التبرعـات في تلك البلاد لحث جهـود البحـث العلمي مـن اكتشاف العـلاج الناجح لهذا المرض في أقرب وقت ممكن، ولا يرتفع صـوت واحد يطالب بتحريم الزنا والشذوذ الجنسي بأشكالـه المختلفـة. وهنا تتجلى روعـة إعجاز التشريـع الإسلامي بتحريمه لمختلـف صور الشذوذ الجنسي، والتي مـن أبرزها اللواط الذي كشف العلم الحديـث عـن أضـراره العضويـة والنفسيـة والاجتماعية، وحذر مـن آثار التحطيم السيئة التي نجمت عنه في كثير من دول الحضارة المادية الحديثة، وتتجلـى كذلك دعوة الإسلام إلـى إنشاء مجتمع نظيف بالإبقاء على الدافع الفطـري العميق بين الجنسين سليماً في موضعه المأمون لتجري الحياة على طبيعتها عن طريق الـزواج واحترام بناء الأسرة التي هي الوحدة الأولى في بناء المجتمع. قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَـى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَـيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون: 5-7)[1].

(1) استـدل الإمـام الشافعي - رحمـه الله - ومن وافقه بهـذه الآيات الكريمة على تحـريم الاستمناء باليد أيضاً، قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين — أي الأزواج والإماء اللائي أحلهن الله.

5 - أكل الميتة وما في حكمها

قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة المائدة: 3) وقال سبحانه: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة البقرة: 173)، وقوله عز من قائل: (قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الأنعام: 145)، وقوله جل وعلا: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة النحل: 115).

يشمل التوجيه الإلهي في هذه الآيات الكريمة تحريم أنواع معينة من اللحوم تحريماً قاطعاً لما تحتويه من خبث أو نجس كشف العلم الحديث عن بعض صُورهما. وغنيّ عن البيان أن هذا التحريم أمر واجب الأداء من قبل الإنسان لله سبحانه وتعالى، فالمؤمن حين يأتيه الأمر أو النهي من الله تعالى لا يملك إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا وما يريد الله بنا إلا خيراً، وطاعة الله - جل وعلا - امتثال والتزام وعبادة، والقاعدة الإيمانية (افعل ولا تفعل) اختبار لإرادة الإنسان ولقوة إيمانه وقدرته على اتباع ما أمر الله به

أن يتبـع والابتعاد عما ينهى عنــه، وسواء علمنا أو جهلنا الحكمة والأسباب، فـإن هــذا لا يؤثر في الأمر شيئاً، ولا ينقص من وجـوب الطاعة والتنفيذ مع الرضا والقبول.

وأول مـا يلاحظه المتدبر لمعاني هذه الآيـة الكريمة هو أن لحم الخنزير ينفـرد من بـين جميع اللحوم المحرمــة بأنه محرَّم لذاتــه، أي لعلَّة مستقرة فيـه أو وصْـف لاصق به، أمــا أنواع اللحــوم الأخرى المذكـورة فهي محرمة لعلـة عارضة عليها. فالشاة، مثلاً، لحمها حـلال طيب إذا ذُكيت بالطريقة الشرعيــة[1]، ولا يحــرم لحمها إلا إذا كانت ميتــة أو منخنقة أو موقوذة (أي مضروبــة حتى الموت) أو متردّيــة أو نطيحة (أي ماتت من سقوط من مكان مرتفــع أو ماتــت عن حادث كدَهْــم سيارة أو نطح غيرها لهــا) أو أكل منها حيــوان مفترس إلا ما ذُكِّي قبل أن تفارقه الحيــاة، أو إذا نُحرت على مذبح الوثنية، وقُصد بها غير وجه الله ذي الجلال والإكرام.

وقــد استطــاع العلــم أن يصــل إلى كثـير من الأســرار المتعلقــة بحكمة التحريم، وسوف نجتهد في بيان ذلك حتى نزداد شكراً لله الذي شرع لنا أن نجتهد في تفهم علة الأمر والنهي إذا توافرت لنا الأسباب المعينة على ذلك.

وبالنسبــة للميتــة فهي باصطــلاح الفقهاء مــا فارقته الحيــاة من غير ذكاة شرعيــة. وقد ثبت علميّاً أن جســم الميتة يحتبس فيه الدم بكل رواسبه وسمومــه، وقد يتخلل الدم جميــع الأنسجة اللحمية وتعمــل السموم عملها، فيبــدأ جسم الميتة يكتسب اللون الداكن، وتمتلئ الأوردة السطحية بالدماء،

(1) الــذكاة (أو التذكيــة) الشرعية: هي ذبــح حيوان مباح للأكل أو نحره، أو عقــره، بحيث يؤمّن استنزاف دم الحيــوان علــى أحسن وجه بقطع أوردة الرقبة وشرايينها الكبيرة، ويساعد في ذلك حركات الحيوان التالية للذبح. وتجب التسمية على الحيوان قبل ذبحه حتى يصير أكله حلالاً.

وتتوقـف الدورة الدموية دون أن يتسرب شيء ولو ضئيل من الدم إلى خارج الجسـم؛ وبذلك تصبـح الميتة كلها بـؤرة فاسـدة للميكروبـات والأمراض وتراكـم المواد الضـارة مثل البولينا وحمض البوليك، وتنبعـث من لحمها رائحـة كريهـة تجعل من الصعـب على كل ذي ذوق سليـم أن يتناوله إلا إذا دفعته الضرورة القصوى لذلك. وقد يكون من أسباب موت الحيوان إصابته بمرض التهابي يجعل الضرر الناتج عن أكله أشد فتكاً، ومن هذه الأمراض السل والحمرة الخبيثة، وقد قررت كتب الطب إعدام جثة الحيوان المصاب بـأي مـن هذين المرضين حتـى لا يُعـدي الإنسان. وقد يكون مـوت الحيوان بسبب ابتلاعـه نباتاً سامّاً أو مواد سامة مثـل السيانور والزرنيخ فيمتصها لحمـه وتصيب آكلها بأضرار بالغة. وقد تكون الميتة هرماً، حيث اللحم أكثر تليفاً وصلابة، بالإضافة لأضرار التفسخ وانحباس الدم. وفي جميع الأحوال يُفضـل مـن الناحية الصحيـة أن يقـوم الطبيب البيطـري بفحص اللحوم للتأكـد من صلاحيتها، وتحديـد ما إذا كانت الوفاة بسبب الهرم أو المرض، أو كانت اللحوم لحيوانات جُلبت من مناطق ملوثة بالإشعاع.

أما بالنسبة للمنخنقة فيُلحق بها ما مات بكتم النفس، أو غرقاً، أو ردماً، أو باستنشاق غازات خانقة؛ فهي كلها حرام؛ لأنه ما سال دمها[1]. وبالنسبة للموقوذة والمتردية والنطيحة فـإن الرضوض تسبب انتشار الدم واحتباسه في الأنسجـة وتحت الجلد مما يزيد احتمال تلفهـا ووصول الجراثيم إليها؛ فقـد ثبت علميّاً أن انحباس الدم يسـرع التعفن ويزيد من تكاثر الجراثيم.

---

(1) من المعروف علميّاً أن الكائن الحي إذا اختنق (أي مُنع دخول الأكسجين إلى رئتيه) فإن غاز ثاني أكسيد الكربـون يتراكم في الجسم مع غيره من الإفرازات السامـة التي يحملها الدم عادة لطرحها عن طريق الرئتـين وخروجها مع النفس في عملية الزفير، ويحدث التسمم في كل أنسجة الجسم نتيجة امتصاصه لهذه المواد، ومن ثم تحدث الوفاة.

من ناحية أخرى، ثبت أن الحيوانات البرية قد تكون مصابة بمرض يظهر في فمها ولعابها وتبقى آثاره على لحم الفريسة فتؤذي من يأكل منه وتمرضه، ولعل وراء هذا حكمة تحريم ما أكل السبع.

ولكن إذا أمكن الوصول إلى هذه الحيوانات قبل موتها وتم ذبحها بالطريقة الشرعية فإنها تحل.

قال تعالى: (قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الأنعام: 145).

لقد أوضحنا دور الاكتشافات الطبية في بيان حكمة التشريع الإسلامي في تحريمه لأكل الميتة وما في حكمها من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع. ونواصل الآن حديثنا عن بيان حكمة تحريم الدم في ضوء حقائق العلم الحديث، فمن المعروف أن الدم يتكون من بلازما وكرات الدم الحمراء وخيوط الفيبرين التي تساعده على التجلط، وإذا ما تُرك الدم معرضاً للهواء الجوي فإنه يصبح وسطاً صالحاً لنمو وتكاثر شتى أنواع الجراثيم. ويفيد العلماء في معامل التحاليل الطبية من هذه الخاصية في زرع بعض أنواع البكتيريا باستخدام مزارع الدم الحيواني للحصول على مستعمرات جرثومية يتم فيها تكاثر البكتيريا بأعداد هائلة، ويساعد هذا على سرعة إجراء التجارب والدراسات والفحوص اللازمة. ويتلوث الدم المسفوح بالجراثيم من مصادر عديدة أهمها: أداة الذبح، أو الأيدي، أو الآنية التي يُوضع فيها الدم، أو الهواء، أو الذباب، أو غير ذلك. ويزداد الضرر عندما يكون الدم لحيوان مريض بأحد الأمراض الحمّية (الجرثومية).

من ناحية أخرى، قد يؤدي شرب الدم المسفوح إما إلى ارتفاع البولينا في الدم وحدوث فشل كلوي، أو إلى ارتفاع نسبة الأمونيا في الدم وحدوث غيبوبة كبدية. وقد أصبح من المؤكد علميّاً أن الدم يحتوي على الكثير من المواد السامة والفضلات؛ لأن من وظائفه حمل فضلات الجسم وسمومه ومخلفات أفعال الهدم Catabalism في الأنسجة المختلفة لطرحها، إما عن طريق الكُلْية، أو العرق، ومن أهم هذه المواد البولينا وحمض البوليك والكرياتينين، كما يحمل الدم غاز ثاني أكسيد الكربون لطرحه عن طريق الرئتين وخروجه مع النَّفَس في عملية الزفير، وينقل بعض السموم من الأمعاء إلى الكبد لتعديلها. وعلى هذا الأساس فإن شرب كمية معتدلة من الدم من شأنه أن يحدث تهيجاً في أغشية المعدة والأمعاء، وبتكرار شرب الدم قد تحدث حالة حساسية شديدة من تفاعل بعض محتوياته (مثل الأنتيجينات) مع الأجسام المضادة. ويؤدي تراكم الدم في الأمعاء إلى أضرار خطيرة ما لم يتم بسرعة إعطاء الحقن الشرجية وتخليص القناة الهضمية من الكميات المتراكمة منه في المعدة والأمعاء.

والدم بطبيعته لا يعتبر غذاء بشريّاً؛ حيث إنه يحتوي على نسبة ضئيلة من بروتينات المصل (البومين وجلوبيولين وفيبرينوجين) تتراوح بين (6 و 8) جرامات لكل مئة ميللي لتر، أما خضاب الدم الموجود بكثرة في الكرات الحمراء فهو عسير الهضم ولا تحتمله المعدة، ثم إن الدم إذا تجلّط يصبح أشد عسرة لتشكّل ألياف الفيبرين Fibrin.

وهنا تجدر الإشارة إلى اعتقاد خاطئ مؤداه أن الدم يُؤكل لما فيه من عنصر الحديد اللازم لمعالجة فقر الدم، وحقيقة الأمر أن الحديد الموجود في الدم من النوع العضوي، ومعروف علميّاً أن الحديد العضوي أقل وأبطأ

امتصاصاً في الأمعاء من الحديد غير العضوي، كما أنه لا توجد ضرورة لتناول الدم أو شرب الهيموجلوبين لمعالجة فقر الدم طالما أن هناك العديد من المواد الصيدلانية التي تحقق الهدف على نحو أفضل، كما يمكن تناول الكبد والطحال، وهما مباحان ويزودان الجسم بكمية جيدة من الحديد.

ومن الجدير بالذكر أنه قد يرد بلسان الشرع تسمية الكبد والطحال باسم الدم، وهذا من قبيل التشبيه لا الحقيقة؛ نظراً لاحتوائهما على كمية كبيرة من الدم، والواقع أنهما نسيجان عاديان لكل منهما وظائفه الخاصة. أما بالنسبة لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذي يقول: (أُحلت لنا ميتتان: السمك والجراد، ودمان: الكبد والطحال)؛ فلعله لرفع الشبهة بتحريمهما عند من رأى أنهما أشبه بالدم من اللحم. وعلى كل حال فإن علم الطب لم يثبت أي ضرر من أكل الكبد والطحال، بل على العكس، فقد دل على كونهما مادتين غذائيتين غنيتين بالكثير من المواد المهمة لبناء الجسم مثل الجليكوجين (مولد السكر) والحديد والبروتين والفيتامينات. وبهذا أيضاً جاء علم الطب مصدقاً وموافقاً للشرع.

وهكذا نجد أن الحقائق الطبية تلقي كثيراً من الضوء على حكمة التشريع القرآني في تحريمه لتناول الدم، وحتى لو لم يصل العلم البشري إلى حكمة هذا التحريم؛ فإن ما قرره العلم الإلهي فيه كل الخير للحياة البشرية، والله لا يحرّم إلا الخبائث وما يؤذي حياة الناس سواء علموا بهذا الأذى أم جهلوه. وهل علم الناس كل ما يؤذي وكل ما يفيد؟!

أما لحم الخنزير فإنه ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم بأنه حرام لذاته، أي لعلة مستقرة فيه أو وصف لاصق به. وتفيد معاجم اللغة العربية بأن من معاني "الرجس": القذر والحرام وكل ما

انطوى على معـاني القبح والضرر. وقد يكون من أسباب ذلك ما نعرفه من أن الخنزيـر حيـوان رمّام، أي أنه يأكل كل ما يجده مـن القمامة والنفايات وفضـول الإنسان والحيوان، ويلتهم حتى جِيَفَ أقرانـه، وأنه لا يكاد يُرى إلاّ وأنفـه في الرُّغام، بـل يذكر البعض أيضاً سبباً آخر وهـو ما يشتهر به ذلك الحيـوان مـن طبائع يراهـا النـاس بمقاييسهـم عارية من الغـيرة والحياء ومنعكسـة علـى آكليـه. ويبدو أن النفـور والتقزز مـن هذا الحيـوان، ليسا قاصريْـن على المسلمين بسبب تحـريم أكل لحمه، ففي أمريكا وأوروبا تُعتبر تربية الخنازير تجارة رائجة، ويتخذ أهل تلك البلاد من هيئة الخنزير دُمًى لأطفالهـم، ومع ذلك فأسماؤه علـى اختلاف لغاتهم تُعدّ سُبَّة لا يقذفون بها إلا كل ذميم.

وقد أثبـت الطب قديماً وحديثاً أن الخنزير هـو أكثر الحيوانات احتواء لعديـد مـن الطفيليات التي قد لا تؤذيه هو، ولكنهـا إذا انتقلت إلى الإنسان عـن طريق لمسه أو تنـاول لحمه فإنها تصيبه بالأمراض الخطيرة التي قد تفضي إلى الموت أو تؤدي إلى عاهات مزمنة. ويمكن تصنيف أنواع الأمراض الخطيرة التي يسببها الخنزير إلى قسمين رئيسين هما:

1 - أمراض ينقلهـا الخنزيـر بقذارتـه مثـل الدوسنتاريـا (الزحار) الخنزيرية التي تصيب الإنسان نتيجة ميكروب معين (يسمى البلانتديارنس) يوجـد في براز الخنزير، وينتقـل إلى طعام الإنسان بعـدة طرق فيستقر في أمعائـه الغليظـة، ويسبب إسهالاً ودوسنتاريا مصحوبـة بالمخاط والدم، مع ارتفـاع في درجة الحرارة، وقد يحـدث التهاب بالرئة وبعضلـة القلب، وقد يُثقـب القولون وتحدث الوفاة. وينتشر الطفيـل المسبب لهذا المرض بين من يقومون على تربيـة الخنـازير أو يعملون على ذبحها وتجارتها. وهنـاك أيضاً

مرض الدوسنتاريا الأميبية الذي سببه طفيليات الأميبا النسيجية التي تتخذ من الخنزير عائلًا لها وتُحْدِث في نسبة من المصابين آثاراً مرضية شديدة بسبب القروح العميقة التي تنخرها في أنسجة الأمعاء، حتى لقد يصبح القولون من بدايته إلى نهايته كتلة من القرح، وقد ينتهي الأمر في بعض الحالات بالوفاة.

2 - أمراض سببها الوحيد هو أكل لحم الخنزير مثل مرض دودة لحم الخنزير الشريطية (المعروفة باسم تينيا سوليوم Taenia Solium)، وهي تعيش في طورها الشريطي البالغ في أمعاء الإنسان حيث يبلغ طولها أربعة أمتار في المتوسط (2-7 أمتار). وتسبب له اضطرابات في الهضم تظهر على هيئة ضعف في الشهية وإسهال أو إمساك، وتتسلل يرقات هذه الدودة إلى مجرى الدم لتستقر في أي عضو من أعضاء الجسم مثل الكبد والقلب والعين والعضلات وتتحوصل بها، فإذا استقرت في المخ - وهو مكانها المفضل - فإنها تتسبب في حدوث مرض الصرع. ويحدث هذا كله عندما يتناول الإنسان لحم الخنزير غير المطهي جيداً والحاوي على الطور المُعْدِي للدودة.

وهناك غير ذلك أمراض أخرى لا تقل خطورة مثل الالتهاب السحائي المخي، ومرض الديدان الشعيرية الحلزونية، وثعبان البطن الخنزيري "الإسكارس"، والأنفلونزا الخنزيرية، والكثير من الأمراض الأخرى التي تنتشر عادة في المناطق التي لا يحرم فيها أكل لحم الخنزير.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ما أثبتته الأبحاث العلمية من أن جسم الخنزير يحتوي على كميات كبيرة من حامض البوليك نتيجة كثرة موارده وقلّة إفرازاته؛ لذلك لوحظ أن الذين يتناولون لحم الخنزير يشكون من آلام روماتيزمية والتهابات المفاصل المختلفة، فضلاً عن أن أليافه الغليظة تسبب

عسراً في الهضم وارتباكاً في الأمعاء، كذلك أثبتت التحاليل الكيميائية أن دهن الخنزير يحتوي على نسبة كبيرة من الأحماض الدهنية المعقدة التي تزيد مادة الكوليسترول في دم الإنسان عن المعدل الطبيعي، وتسبب تصلب الشرايين، وارتفاع ضغط الدم اللذين يؤديان إلى معظم حالات الذبحة القلبية.

وهكذا نجد أن العلم قد كشف عن بعض الأضرار البالغة لأكل لحم الخنزير مؤكداً صدق رؤية الإسلام والحكمة من تحريمه. وغني عن البيان أن معرفتنا ببعض جوانب علة التحريم لا ينفي وجود جوانب أخرى لم نعرفها بعد، فنقول ما قالته الملائكة: (قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (سورة البقرة: 32).

الفصل السابع

العلم والتقنية في خدمة الفقه المقاصدي



1 - مكانة الفطرة والمنهجية في الفكر المقاصدي

لقد جاء الدين الإسلامي الخاتم ليقود حركة الإنسانية كلها دون أدنى تناقض مع الفطرة الإنسانية السوية التي تمثل مبدأً أساسيّاً من المبادئ التي يقوم عليها الفكر المقاصدي، وجملة من الإمكانات الإنسانية الجسدية والعقلية، التي تتسق وتتطابق مع ما جاء به الشرع الإسلامي. فالذي خلق النوع الإنساني هو الذي شرع لهم الأحكام التي تصلح لهم: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (سورة الملك: 14).

وقد اختلف العلماء حول ترتيب المقاصد الكلية الخمس للشريعة الإسلامية، والمتمثلة في حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ورأى بعضهم أنها مترابطة فيما بينها ترابطاً محكماً، بحيث يتوقف وجود بعضها على البعض الآخر، "فلو عُدم الدين لعُدم ترتب الجزاء المُرْتَجَى، ولو عُدم المكلَّف لعدم من يتدين، ولو عُدم العقل لارتفع التدين، ولو عُدم النسل لم يكن في العادة بقاء، ولو عُدم المال لم يبق عيش". أو – بعبارة أخرى – أن هذه المقاصد يؤثر بعضها في بعض، ويتداخل بعضها مع البعض الآخر، وأن حفظ بعضها ينعكس تلقائيّاً في حفظ البعض الآخر، وانخرام بعضها يؤثر في البعض الآخر، فهي أشبه بحلقات السلسلة الواحدة التي يرتبط بعضها ببعض، ويأخذ بعضها بيد بعض. ورأى بعض المعاصرين في فكرة المنظومة الدائرية بديلاً عن الترتيب التقليدي[1].

ولما كان الفكر المقاصدي هو الذي يمثل العُدَّة العلمية (مبادئ وتقنيات ومفاهيم) التي يُتوسَّل بها في التوصل إلى مقاصد الشريعة، سواء تمثلت

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في: د. جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سورية، 1422هـ / 2001م.

في المعاني والدلالات المقصودة من خطابها، أو تمثلت في الغايات والأهداف المصلحية المقصودة من تشريع أحكامها العملية والاعتقادية، فإنه – أي الفكر المقاصدي – بذلك يُعدُّ جانباً أساسيّاً من الثقافة الفقهية والأصولية، باعتباره ممارسة اجتهادية في الشريعة الإسلامية بوصفها خطابات أُمرنا بالسعي المستمر للإفادة من معانيها، وبوصفها كذلك أحكاماً عملية تنطوي على غايات مصلحية تُقاس مشروعيتها بمدى تطابقها مع الفطرة الإنسانية النقية بحسب ما يقصده الشارع.

ولقد سبق للإمام ابن عاشور - رحمه الله - أن بيّن أهمية الفطرة، وكان من جملة ما نبّه عليه قوله: (إن كل فعل يحب العقلاء أن يتلبس به الناس، وأن يتعاملوا به فهو من الفطرة، وكل فعل يكرهون أن يقابلوا به، ويشمئزون من مشاهدته وانتشاره، فهو انحراف عن الفطرة؛ فإذا تعارض فعلان أو خاطران مما تقتضيه الفطرة وجب اختيار أعرقهما في المعنى الفطري أو أدْومهما، أو أشيعهما في الناس، أو أليقهما بالإشاعة في البشر، على أنه إذا أمكن رعي أحد الفعلين في بعض الأزمان أو بعض الأمكنة أو لبعض الأمم، ما دام لمقتضيه مساس بحاجة الناس الملحة، وجب رعيه، فإذا ضعفت الحاجة إليه رجع إلى غيره)[1].

ولما كان الاستقراء في المنهج العلمي عموماً هو الانتقال من تصفُّح الجزئيات والحكم عليها ثم الارتقاء من النظر في حالات وأحكام جزئية إلى حكم عام يسهم في فهم الظاهرة الكونية موضوع البحث والاستفادة منها، فإن علماء الأصول، خاصة أهل المقاصد منهم، قد اعتمدوه في بناء أنساقهم المختلفة، باعتباره أداة مهمة من أدوات الفكر المقاصدي في الإسلام[2].

(1) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1975، ص22.

(2) – د. أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، القاهرة، 1984.

وأهـم ما يميـز الاستقـراء كطريقة علميـة للتتبع والإحصـاء والتحقق والتفنيـد والمراجعة المستمرة، وصولاً إلى حكم عام بأعلى درجة ممكنة من التصديـق والرجحان، أنه يعين على استنبـاط فروض صائبة تتعلق بالسنن الإلهيـة المطردة التي لا تتبدل ولا تتحول في الواقع الكوني الثابت، لأنها سنن الفطـرة العاملـة في ظواهر الكون والحيـاة. فقد خلق الله هـذا الكون على أعلـى درجة من الترتيب والنظام والكمال والجمال، وحفظ تناسقه ووحدته وتوازنـه، في ترابط محكم بين عوالم الكائنـات، وتنسيق معجز بين آحادها ومجموعاتهـا. وفي إطار هذا المفهوم الإيماني لسـنن الفطرة في المخلوقات، يتمتـع الباحث المسلم بالاطمئنـان والثقة اللازمين لمواصلـة البحث العلمي والنظـر في مجموعـة محددة مـن الوقائع ليستنبـط مـن استقرائها حكماً عامّـاً منسجماً مع قوانين الفطرة السوية المستمدة من إرادة الخالق الواحد ومتوقِّفاً عليها. قال تعالى: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّـئُ إِلَّا بِأَهْلِـهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَـن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (سورة فاطر: 43).

وهكـذا فإن استقراء التصرفات الشرعية مـن زواج وإرضاع، وآداب في المعاشـرة، وأحكام في حفظ النفس والأنساب والأمـوال،... يفضي إلى أنها مسايـرة للفطرة؛ إما لأنها تقيمهـا في أنفس المكلفين، وإما لأنها تحميها من الانحـراف؛ لذا لا يمكن تفقه الشرع الإسلامي إلا على أساس دقيق وواضح من الوعي العميق لمكونات الفطرة الإنسانية.

إسماعيل الحسني، الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 57، ص 45 : 82، صيف 1430هـ/2009م.

أبو إسحق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبدالله دراز. دار المعرفة (د.ت)، ج1 ص3.

2 - حفظ النسل والعِرْض وفطرية التزاوج

إن مـن يستقـرئ تاريخ البشريـة، فضلاً عن تعاليم الأديـان السماوية، يـدرك أن الـزواج ونظـام القرابـة وتكوين الأسـرة، وزيـادة النسل وحفظ العِرْض، وعدم اختلاط الأنسـاب، والابتعاد عن الخيانـات الزوجية، كلها قضايـا مغروسة في فطرة الإنسان وكينونته، حتـى عند البدائيين والوثنيين الذيـن لا يعتقدون في أية شريعة، نجـد أن فطرتهم تنتفض بين حين وآخر، وتتجلّـى على شكل قانـون، أو عـادات وتقاليد، لتنظيـم سلوكهم الأخلاقي وحياتهـم الاجتماعيـة، فإن اتفـاق البشر وتعاهدهم، علـى اختلاف مللهم ونحلهم وحضاراتهم وأديانهم وشرائعهم، على مسألة ما - دليلٌ على تأصُّل تلـك المسألـة في النفوس، وموافقتهـا للفطرة الإنسانيـة السليمة التي يكون عليهـا كل موجود أوَّل خلْقه، وتكون مهيأة لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطـل، وبين الصواب والخطأ، وبـين الخير والشر، وبين الجمال والقبح. واهتداء الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها فيه خير كثير يجعله يعيش في سـلام ووئـام مع نفسه، ومع فطـرة الوجود الكبير من حولـه، ولقد جاء الإسـلام بشريعة واقعية توافـق الفطرة النقية في كل ما أحلّت وحرّمت، وفي كل مـا سنَّت من أنظمـة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللدولـة، وللمجتمع، من ذلك تشريعات الزواج والأسرة لحفظ كرامة الإنسان وبقاء ذاته ونوعه.

إن كافـة الكائنـات الحية يلهمهـا الله - سبحانه وتعالـى - أعمالاً هي مـن صميـم فطرتهـا وغريزتها التـي لا إرادة لهـا فيها، من ذلـك فطرية التـزاوج والتناسـل ومـا يلزمهمـا مـن سلوكيـات تـدل على قـدرة الخالق الواحد - سبحانه وتعالى - .

وإذا كان التزاوج بين أفراد الجنس البشري لم يختلف منذ بدء الخليقة من حيث الطرق المعروفة في إبداء الرغبة ولفت الانتباه بين الذكر والأنثى، فإن معظم الحيوان لا يختلف عن الإنسان في التزاوج، بل ربما تكون مظاهر الإلهام في تناسل الحيوان أقوى وأبلغ في الدلالة منها في الإنسان.

ويُعتبر طائر الروبين من أوضح الأمثلة على ما تتخذه الطيور من خطوات طويلة للتزاوج، ففي صيف السنة السابقة لبناء العش يستولي الذكر على قطعة من الأرض كبيرة المساحة في حقل أو غابة، وحين يحط عليها يأخذ في الدفاع عنها ضدّ أي حيوان أو طائر يحاول انتزاعها منه، وحين يأمن وتثبت ملكيته لها، يقبع على شجرة قريبة ويأخذ في الصياح إعلاناً منه وإشعاراً لباقي الطيور بامتلاكه الأرض، ويظل على هذا الإعلان ستة أشهر كاملة، وفي منتصف الشتاء ينقلب صياحه إلى تغريد وغناء فتنجذب إليه الأنثى التي تعيش معه في الربيع، وحينئذ يتعاونان في بناء عشّهما ثم يتلاقحان، وتضع الأنثى البيض وتحتضنه حتى يفقس. وهنا نلاحظ أن التزاوج قد سبقته مقدمات منتظمة مقصودة الغرض طوال عام تقريباً. وكافة أفراد هذا النوع من الطيور تتفق في هذه الطقوس الفطرية التي علّمها خالقها إياها مثلما علَّم غيرها في عالم الأحياء.

وهناك العديد من الأمثلة الأخرى التي تدعو إلى العجب في عالم الحيوانات البرية والبحرية، وكذلك في عالم النبات الذي تتنوع فيه طرق التلقيح والتزاوج بين أعضاء التذكير والتأنيث بواسطة الحشرات أو الرياح أو الإنسان.

إلا أنه في هذا الصدد ينبغي إدراك الفرق الرئيسي بين الإنسان وغيره من الأحياء، ففي عالم الحيوان تقوم الغريزة الفطرية بتنظيم مواسم معينة للنشاط الجنسي، حتى إذا تمت المهمة، وحملت الإناث بذور الأجيال

القادمـة، صـام الذكر والأنثى كلاهما عن كل محاولـة جنسية صياماً ينشأ مـن عـدم وجود الرغبة، لا مـن ضبطهـا وتقييدها بإرادة الحيـوان؛ ولهذا تهتـم بعض الهيئات بالمحافظة على السلالات الحيوانية المهددة بالانقراض لأسباب مختلفة.

أمـا الإنسان فقد تحـرر من هذا الضبـط والقيد، وصـارت الأيام كلها عنده موسماً صالحاً لهـذا النشاط الجنسي. وفي مقابل الحرية تقوم دائماً تبعة، فتلك سنة الحياة، وهذه التبعة تقتضي أن يقوم الإنسان نفسه بتنظيم مشاعـره الجنسية وضبطها، بحيث تحقق أهدافها المرسومة، ولا تعود عليه بالضرر فرداً أو جماعة، وعلى قدر توفيقه في هذه المهمة يكون مدى ارتفاعه في سلـم الرقي[1]، فهو قادر على ضبط نفسه عن طريق الإرادة المتحكمة في مشاعره وأعماله، وتلك مزيته التي كرمه الله بها، كما أنه قادر على اختيار مـا هو خير من غـيره وإيثاره على ما عداه، والإنسان لا يكـون إنساناً إذا لم يعمـل على ضبـط نوازعه وتنظيم شهواتـه، وإذا لم يسلـك الطريق المؤدية إلـى كل ما يبعـث على الرضا والاستحسان لكمالـه في نوعه، أو لملاءمته، أو لفائدته، أو لاتفاقه مع التشريعات الإلهية[2].

ومـن حقائق الفطـرة الإنسانية أن هناك تجاذبـاً فطريّاً بين الجنسين، لابـد أن يأخـذ سبيله إلـى اللقاء على النحـو الذي يحقق استمـرار الحياة والإعمـار في الأرض إلـى ما شـاء الله تعالى. ومـا دامت فطـرة التجاذب بـين الجنسين حتمية الحـدوث، وما دام الجنسان ليسـوا أفراداً معدودين،

---

(1) محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

(2) الاختيـار في ذاتـه قيمة إيجابية أنعم الله بها على الإنسـان للسعي إلى الجانب الخيِّر الكامن في الفطرة الإنسانية، فالخير هو الغاية العليا للأخلاق إذا ما اتصفت به الأفعال في طبيعتها. راجع مادة "خ ي ر" في المعجم الوجيز. ومادة "خير" في المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولكنهـم رجال كثير ونساء، فقـد لزم تنظيم التجـاذب بينهما لكي لا يؤدي إلى الفوضى والاضطراب، وكان الزواج تلبية ضرورية لتلك الرغبة الفطرية العميقة في نفس الفرد، ونشأت "الأسرة" بنمو اجتماعي فطريّ بحت لتكوّن "المجتمع" بادئ ذي بدء في أية صورة من صوره، وما زال الزواج والأسرة منـذ وُجـدا في مجتمع الصيد في ظلمـات التاريخ، "نظامـين طبيعيين" في بنيـة المجتمعات البشريـة يلبّيان دوافع الفطرة في اللقـاء الجنسي والرغبة في النسْـل، رغم ما يظهـر إلى جانبهما من نظم أخـرى تقوم على الإباحية والتحلـل، وتهـدد البشرية بالدمار، فالفطـرة تتأذى دائماً مـن كل شيء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه[1].

وخاصيـة النمـو، التـي تنمـي الطفـل حتـى يبلغ أشـده، وهـي خاصية بيولوجية، أي في صميـم الفطرة، هي ذاتها التي تنمي المجتمعات الصغيرة إلـى مجتمعـات كبيرة، فتنتمـي الأسرة إلـى عشيرة، والعشـيرة إلى قبيلة، والقبيلة إلى أمة،... وهكذا، وتنمِّي العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة[2]. ومن الطبيعي أن تكون التنظيمات الاجتماعية المختلفة ذات صلة وثيقة بالحضارة والثقافة.

وقد توصل علماء الأنثروبولوجيا إلـى أن النسب والمصاهرة هما أساس القرابـة بين اثنين أو أكـثر، وتحدد هذه القرابة رابطة الـدم، أو القبيلة، أو المصاهـرة الناشئة عـن الزواج، أو الرضاعـة، أو التبنـي،... إلخ. ويقصر الأنثروبولوجيـون الاجتماعيـون البريطانيـون مصطلـح "النسـب" علـى العلاقات القائمة بين أفراد ينتمون إلى أكثر من جيلين، في حين يستخدمون

---

(1) محمد قطب، التطور والثبات في حياة البشرية، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

(2) المرجع السابق.

مصطلح "البنوة" على علاقات النسب داخل "الأسرة النووية" ما بين الأب أو الأم – وأولاده[1]. وقد ظهر علم الأنساب بقواعده الجزئية والكلية للتعرف على أنساب الناس من أجل الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص.

وسوف نعرض فيما يلي بإيجاز لبيان أهمية النسب ومكانته في الأسرة وفي بعض الحضارات القديمة:

- حضارة المصريين القدماء

اعتمد مؤرخو الحضارة المصرية القديمة في كتابة تاريخ هذه الحضارة على ما خلفته من تراث مكتوب وغير مكتوب يشمل الأهرامات والمعابد والمقابر وأوراق البردي واللوحات الجنائزية والتوابيت، وغيرها، بالإضافة إلى كتابات الرحالة اليونان والرومان، وما ورد في كتابات الحضارة المعاصرة للحضارة المصرية القديمة، كالحضارة البابلية والسومرية والآشورية والفينيقية والآرامية، وما ورد في الكتابين السماويين (التوراة والقرآن الكريم) من إشارات إلى مواقع قديمة وأحداث تاريخية.

وكان من بين الوثائق المهمة التي خلفها المصريون القدماء ما يُعرف باسم "نصوص الأنساب"، ويُقصد بها النصوص التي تحكي نسب عائلة معينة. وكان الاهتمام بتسجيل الأنساب قد انتشر بصورة خاصة في العصور المصرية المتأخرة. وترجع أهمية تلك النصوص إلى أنها تساعد على معرفة تتابع بعض الملوك الذين عاشت أسر أصحابها في عهودهم، ومن أشهر هذه الأنساب نسب كاهن عاش في الأسرة الثانية والعشرين، منقوش على لوحة من الحجر محفوظة بمتحف برلين، وقد ذكر الكاهن أسماء ستين جَدّاً، وأمام كل منهم الملك الذي عاصره.

(1) مارفن هاريس، الأنثروبولوجيا الثقافية، الترجمة العربية مراجعة أ.د.السيد حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2006م.

وتشير مصادر أخرى إلى أن العرش انتقل في يسر من الأسرة الحادية والعشرين إلى الأسرة الثانية والعشرين دون إراقة دماء، ولعل رابطة النسب كانت الدافع لذلك الانتقال السلمي للسلطة؛ لأن "سركون" ابن شاشنق مؤسس الأسرة الثانية والعشرين، وخليفته كان زوجاً لابنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين الذي لم ينجب ذكراً مما جعله يقبل تزويج ابنته من ابن أقوى رجل في الدولة ليضمن العرش في نسله من الإناث[1].

وبصورة عامة، كانت النصوص المصرية القديمة تولي الزواج أهمية بالغة، وتنهى عن الزنا وتهدد مرتكبه بأعنف العقوبات؛ فالزوج الخائن يتعرض لعقوبة الجلد، والزوجة الخائنة تتعرض لجدع الأنف، كما كان الزنا أحد المبررات للطلاق عندهم دون تفرقة بين الرجل والمرأة.

ولقد كان لعقيدة الخلود بعد الموت عند المصريين القدماء أكبر الأثر فيما يتعلق بالأخلاق عندهم على مستوى الفرد والمجتمع. وقد تضمن "كتاب الموتى" الذي كانت تُوضع نسخة منه مع كل ميت - عدداً من "إعلانات البراءة" تكون بمثابة الدفاع الذي يدافع به الميت عن نفسه ويعلن أنه طاهر مبرأ من كل إثم حتى يمكن لسيد القضاء "أوزوريس" أن يحاسبه في الآخرة[2].

ومما جاء في هذا الدفاع: (إنني لم أقارف الشر ولم أعتدِ، ولم أسرق، ولم أقتل غدراً، ولم أمس القرابين، ولم أكذب، ولم أتدنَّس، ولم أذبح الحيوانات المقدسة، ولم أتلف أرضاً مزروعة، ولم أقذف (الأعراض)، ولم أترك الغضب يخرجني إلى غير الحق، ولم أزْنِ، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل، ولم أسئ الظن بالملك ولا بأبي ولم ألوث الماء، ولم أغش في الميزان، ولم أمنع اللبن عن

---

(1) د. عبدالحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة، الخليج العربي للطباعة والنشر (د.ت).

(2) جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، الترجمة العربية، عالم المعرفة، الكويت، 1993م.

أفـواه الرضع، ولم أسد قنـاة ري على غيري، ولم أطفئ ناراً يجب أن تُشعل، ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة، إنني طاهر طاهر).

وبعـد أن ينتهي الميـت من هذا الكلام الذي يتوجه به إلـى أوزوريس، يتوجه إلى القضاة قائلاً: (... إنني آتٍ بلا خطيئة ولا سوء، وقد فعلت ما يرضي الناس والآلهـة، وأرضيت الإله بما يحبـه، وقد أعطيت خبزاً للجائـع، وماءً للعطشان، وثياباً للعاري، وزورقاً لمن ليس له مركب...).

ويلاحـظ علـى هذا الدفـاع الشامـل أنه يتضمن كثـيراً من أوجـه النشاط الإنسـاني الشامـل في مجالات مختلفة تتعلـق بالآلهة والملـك والأب والجار، ثم بالنـاسـ جميعاً، بل بالبيئـة الطبيعية نفسها، ثم يلاحظ كذلـك أن هذا الدفاع ليسـ مقصوراً على الامتناع عن بعض الرذائل، وإنمـا يضيف إلى هذا الجانب عدداً من الفضائل الإيجابية التي تدل على التعاطف مع إخوانه من بني البشر، وإذا كان كل فـرد يتخلق بهذه القيم الرفيعـة والصفات الفاضلة، فإن المحصلة النهائيـة هـي الارتقاء العام للأخـلاق السائدة في المجتمع، وقلـة نسبة المظالم والهبوط الأخلاقي[1].

- الحضارة الصينية

تقـف الحضـارة الصينيـة وحدهـا وسط حضـارات العـالم الكبرى من حيـث إنهـا قد تطـورت في عزلة تامـة، تقريباً عـن بقية الحضـارات؛ ولهذا كانـت إنجازاتهـا فريدة، فهم يتكلمون لغة لا يربطهـا صلة بأي جماعة لغوية أخـرى، وتُكتب بخط اخترعوه لا يشبه غيره، وقد قامت اللغة وطريقة كتابتها

---

(1) لمزيـد من التفصيل، راجع: د. عبدالحميد عبدالمنعم مدكور، دراسات في علم الأخلاق، مكتبة الشباب، القاهرة، 1990م.

وقراءتها بدور قوي في إحساس الشعب الصيني، لا بالوحدة والهوية فقط، بل كذلك بالاستمرار والتواصل، وهذه الخاصية الفريدة تكتسب أهمية خاصة في حديثنا عن مكانة النسب ونظام القرابة في الفطرة الإنسانية، مقارنة بالحضارات الأخرى القديمة، خصوصاً أن استقراء التاريخ القديم يوضح لنا أن الصين قد تطورت بنفسها، وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (في الطرف الشرقي الأقصى) من العالم الأوروبي الآسيوي القديم، تحيط بها جبال وصحراء، ولا تمر بها أيّة طرق للتجارة، وبالرغم من هذه العزلة الجغرافية، فإن التجربة الصينية استوعبت مشاعر وتطلعات الجنس البشري كله، ولكنها عبرت عنها باستمرار بطريقة صينية خاصة في ظل الديانتين القوميتين الأصليتين: الكونفوشية، والطاوية (التاوية) على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصيني، حتى بعد مواجهة التراث الأجنبي الوافد إليها. وكانت الأولى ملهمة لفلسفة الأخلاق والسلوك الاجتماعي، بينما كانت الثانية ملهمة لديانة التصوف[1].

وإذا قصرنا الحديث عن الكونفوشية، فكان مؤسسها "كونفوشوس" (551-479ق.م) هو الفيلسوف الصيني الأول الذي أنشأ مذهباً أخلاقيّاً في التنظيم العائلي والاجتماعي وما يتعلق بهما من طقوس وممارسات، ويؤكد أحد مبادئ هذا المذهب على ما أسماه "ولاء الأبناء" أو "الهسياو Hsiao" التي تعني في اللغة الصينية أصلاً ولاء الأبناء للآباء الموتى وللأسلاف، والواجبات التي ينبغي أن تُؤدى لهم كتقديم القرابين والطعام، لكن كونفوشوس كان يشدّد أيضاً على تأدية الواجب للأحياء، فقد أصبح

(1) جفري بارندر (محرر)، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: د. إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة: د. عبدالغفار مكاوي. سلسلة عالم المعرفة (173)، الكويت، ذو القعدة، 1413هـ/مايو 1993م.

"ولاء الأبناء" يعني خدمة الوالدَيْن أثناء حياتهما؛ ومن ثم اكتملت علاقة الابن بأبيه، والأخ بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجته.

فالهسياو إذن هو فضيلـة توقير العائلة واحترامها، حيث يتم أولاً، وقبل كل شـيء توقير الأبوين؛ لأن الحياة نفسهـا متولدة عنهما، وفي غمار إظهار التوقـير للوالدين، يكـون من الأهمية بمكان حماية الجسـم من أن يلحق به أذى؛ حيـث إن الجسم من الأبوين، ومـن هنا فإن حماية الجسم هي تكريم للأبويـن[1]. والأكثر من ذلك أن يتم إظهار التوقير للأبوين من خلال حسن السلوك في الحياة، وإذا لم يكن بمقدور المرء أن يشرِّف اسم أبويه، فعليه على أقـل تقديـر، ألا يجلب لهما الخزي والعار. وهكذا فإن "هسياو" لا يتمثل في الرعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك في جلب الثراء العاطفـي والروحي. ومن المهم بالقدر نفسه أن تكون أهدافهما وأغراضهما التي لم تتحقق هي نفسها، بعد موتهما، أهداف أبنائهما وأغراضهما، بل إن هذا أكثر أهمية من تقديم القرابين إلى روح الوالدَيْن الراحلَيْن.

والولاء للأسرة في فلسفة كونفوشوس يعني أن يكون المرء مهذباً وإنساناً وخـيراً إلـى أقصـى حد، ويقـول: إن مـا يجعل البشـر إنسانيـين على نحو فريد هـو "جين" Jen، أي الصفـة الجوهرية للقداسـة، "فالجين" نفسه عنـد كونفوشوس هو نموذج متعالٍ لم يبلغه سوى حكمـاء الماضي، إنه كيان صـوفي[2]؛ ومن ثم فـإن "هسياو" ليس فضيلة عائليـة فقط، فهذه الفضيلة

---

(1) جون كولر. الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، مراجعة: د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (1990)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، صفر 1416هـ/1995م.

(2) لقـد تعددت ترجمـات كلمة "جين Jen" ومنها: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقـي، الحـب، الخير الإنساني، وهذه كلها قيم تشير بوضوح إلى أن "جين" هو المبدأ المطلق للفعل الإنسـاني، والكائـن البشري الحق لا ينحرف عن طريق "الجين" أبـداً، ومن ينحرف عن هذا الطريق لا يعبر عن كمال الإنسانية.

التـي تنشـأ في العائلة تؤثر في الأفعـال خارج المحيط العائلـي، وتصبح من خلال اتساع نطاقها فضيلة أخلاقية واجتماعية.

وعندمـا يتعلم الأطفال احـترام أبويهم وتوقيرهم، فـإن بمقدورهم أن يحبـوا إخوتهم وأن يحترموهـم، وعندما يحققون ذلك، فـإن بإمكانهم أن يحبـوا الإنسانية بأسرها، وأن يحترموها، وعندمـا يوجِّه حبُّ الإنسانية كل الأفعـال فإنهم يتصرفون وفقاً لإنسانيتهـم، أو وفقاً "للجين Jen"، وهكذا فـإن بدايـات "جين" إنمـا توجـد في ولاء الأبنـاء "هسيـاو"، وإن العائلة تشكل في فلسفة كونفوشوس البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، ففي العائلة يتعلـم الطفـل احـترام الآخرين وحبهم، حيـث يأتـي الآبـاء أولاً، فالإخوة والأخـوات والأقارب، ثـم باتساع النطـاق التدريجي، الإنسانيـة كافة، وقد قال "توتسو Tutzu" أحـد أتباع كونفوشوس: (إن الولاء البنوي "هسياو" والاحترام الأخوي هما جذر الإنسانية)[1].

- حضارة وادي الرافدين

كان الزواج عند السومريين يحظى بأهمية بالغة، وكانت الخيانة الزوجية عندهـم جريمة يعاقـب عليها القانـون، فالزانيان إن أُخـذا بالجرم المشهود يُوثقـان ويُلقيـان في الماء، وإن لم يكـن بالجرم المشهود فيمكـن للمرأة تبرئة نفسهـا بالقسم، ولم يختلـف الأمر كثيراً عند الآشوريـين، فالخيانة الزوجية عندهم عقابها الموت غرقاً، أو جلْد الفاعليْن أو نتف شعرهما أو قطع آذانهما، وكانوا يدعون لزيادة النسل واعتبار الإجهاض جريمة خطيرة عقابها الإعدام. واعتبروا الضرب المفضي إلى الإجهاض جريمة عقابها الجلد خمسين جلدة،

---

(1) راجع: جون كولر. الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق.

وتشغيـل مرتكبها بأعمال السخرة، وقد تصــل العقوبة في بعض الحالات إلى حد الإعدام، أما البابليون فقد خصصوا أكثر من (60) حكماً يتعلق بصيانة العائلة، والتشديد على الحد من وقوع الزنا وتنفيذ عقوبة الغرق لمرتكبه.

وفي أواخــر الألــف سنة الثالثــة، أو في بكــور الألف الثانيــة قبل الميلاد، نجــد حمورابي أعظم ملوك الأســرة البابلية الأولى قد وضــع نظاماً إدارياً لإمبراطوريتــه، وكان أهم أثر تذكاري لحكمه هو مدونة القوانين التي كشف عنهــا علمــاء الآثار الفرنسيــون في "سوس" في السنــوات الأولى من القرن العشريــن الميلادي، وكشــف أيضاً عن أجزاء منها في مكتبــة آشور بني بال في نينــوى، وقد ترجمها القس س.هــ.و. جونس C.H.W.Johns، وهي تمثل تقدمــاً عظيمــاً بالقياس إلى ما جــرت عليه العــادات في المجتمعات الأولى. وكان مــن بين مــا تضمنته "شريعــة حمورابي": هذه أحــكام الاستقامة في الــزواج والتبنــي والإرث والمسؤوليــة عن ديــون الزوجة والحقــوق الشرعية للنســاء والأطفال. وقد ربــط بعض الباحثين بين الشريعــة الموسوية ومدونة القوانين البابلية، وأشاروا إلى امتداد تأثيرها في العهد المسيحي[1].

---

(1) و.ج.دي بــورج. تــراث العالم القديم، الجزء الأول. ترجمة: زكــي سوس، مراجعة: د. يحيى الخشاب، د. صقر خفاجة، دار الكرنك. القاهرة. 1965م.

3 - حفظ النفس والعقل والبدن (الصحة) بالطب والعلاج

يُعـرَّف الطب بأنـه علم يُعْرَف منـه أحوال بدن الإنسـان ونفسه من جهة مـا يصحّ ويزول، لتُحفظ الصحـةُ حاصلةً وتُستردَّ زائلـة. ويقول ابن خلدون في مقدمتـه: (صناعة الطب تنظر في بـدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفـظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية). والأصل في الطـب هو التخفيـف عن آلام النـاسـ الجسمية، وكُربهـم النفسية. والصحة ضرورية لإنسان الاستخلاف المكلَّف بعمارة الأرض وترقية الحياة عليها حتى يستكمـل حكمة الله من خلْقه وخلقها. قال تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) (سورة هود: 61).

ومفهوم الصحة، باعتبارهـا من مقومات أداء الفروض التعبدية، وأداء أمانـة الاستخلاف في الإعمار الحضاري، ينقـل موضوع الصحة من دائرة ضيقـة تشمل الطبيب والمريض إلـى النظرة الشموليـة الواسعة التي تربط العقيـدة بالشريعـة، بالنشاط الإنسـاني، بصحة الفـرد، وبإصحاح البيئة والمحافظـة عليهـا وإصلاحها؛ ومـن ثم فإن الطـب، باعتباره علمـاً نافعاً، يهـدف إلى صحة النفس والعقـل والبدن التي تعين على توفير كافة المقاصد الرئيسية للشريعة كما يراها الفقهاء.

ويحتـل الطـب الوقائي في عصرنا منزلة مهمة بين فـروع العلوم الطبية وكان أطبـاء المسلمين الأوائل يطلقون عليه "حفـظ الصحة"، وقدَّموه على إعادتها فقالوا: إن حرز الشيء الموجود أجلُّ من طلب الشيء المفقود، وعرف ابن أبـي أصيبعة الصناعة الطبية بأنها (حافظـة للصحة الموجودة، ورادَّة للصحـة المفقـودة) ويعتبر كتاب أبي زيد البلخي في القـرن الثالث الهجري

بعنــوان "مصالــح الأبدان والأنفســ" من أوائـل المؤلفات الطبيــة العربية التــي أفردت "حفـظ الصحة" في مصنف خاص، فهو يبحث في موضوعات حفـظ صحــة البــدن وحفـظ صحــة النفس، أمــا إعــادة الصحــة – فيما يقول البلخي – فإنها داخلة في صناعة المداواة (أي الطب العلاجي)[1].

وقـد كان لتوجيهـات الإســلام وتعاليمه الأثــر البالــغ في العناية بحفظ الصحــة، سواء فيما فرضــ من فروض الصلاة والــزكاة والصيام والحج، أو فيمــا أمر من تحميل المسؤولية عن البدن، والحث على التداوي، والتوجيه إلى النظافة الشخصية والعامة، وإلى الحفاظ على البيئة، واختيار الأطعمة النافعة، وعدم الإسراف في الطعام، والوقاية من الأمراض.

ومــن الإعجــاز الإلهي في خلــق الإنســان أن زوّده بجهــاز مناعي لحفظ النفس: قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (سورة الطارق: 4).

وقـد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من ســورة الطارق أن كل نفس عليها مــن الله حافظ يحرسها من الآفات، وهــي تعطينا معاني عديدة، منها أن تكون هــذه الحراسة عن طريق عضو يحفظ باقي أعضــاء الجسد ويحذر النفس من أي خطر داهم أو أذى متوقع، على نحو ما تفعل العين عن طريق النظر، أو الأذن عــن طريق السمــع، أو ما يفعل اللســان عن طريق التــذوق، أو الأنف عن طريق الشم، أو الجِلْد عن طريق الإحساس، أو غير ذلك من مختلف أعضاء الجسم.

ويقــدم لنا العلم الحديث معنى جديــداً يخدم تفسير هذه الآية الكريمة مــن خلال ما يُعــرف في علم الطــب باسم "الجهــاز المناعــي" الذي يقوم بــدور المقاومة والمناعة. ويقسم العلماء المناعة إلــى نوعين رئيسيين: أوّلهما

---

(1) راجــع: د. أحمــد فؤاد باشــا، الإعمار الحضــاري فريضة إسلاميــة، مكتبة الإمام البخــاري، القاهرة، 2011م.

هـي المناعة الطبيعية؛ أي الموروثـة التي تولد مع الإنسـان، وثانيهما المناعة المكتسبة، أي التي تُكتسب أثناء حياة الإنسان.

أمـا المناعـة الطبيعية الموروثة فهـي بمثابة الخط الدفاعـي الأول الذي يواجـه أي ميكـروب يجـد طريقـه إلى جسـم الإنسـان. وتتم هـذه المناعة الطبيعية الموروثة بعدة وسائل أهمها:

- الأسطـح المغطيـة للجسـم، مثل الجلـد والأغشية المخاطيـة، وهي لا تمثـل مانعاً أو حاجـزاً فقط، بل توجد في إفرازاتها بعض المواد التي تقاوم البكتيريا.

- الخلايا الملتهمة، وهي نوع من كرات الدم البيضاء، توجد في الدم وفي بعض الأنسجة، وتلتهم البكتيريا وتتغلب عليها وتبطل مفعولها.

- البكتيريـا الطبيعية، وهي التي توجـد في الظروف الطبيعية في أماكن متعـددة من جسـم الإنسان، مثل الفم والحلق والأمعـاء وعلى الجلد. وهذه البكتيريـا لا تسبـب أمراضاً، ولكنهـا بوجودها وتكاثرهـا في مكانها المعيَّن تفوِّت الفرصة على أية بكتيريا دخيلة ضارة في التكاثر والنمو.

هـذا بالإضافة إلى وجـود مواد خاصة في الأنسجـة وسوائل الجسم لها تأثير قاتل على البكتيريا.

وأما المناعة المكتسبة التي يكتسبها الإنسان أثناء حياته فتتم أيضاً بعدة وسائل منها:

- الأجسام المضادة التي تفرزها بعض خلايا الجسم في الدم، وهي عدة أنواع يختص كل منها بمقاومة نوع معين من البكتيريا وسمومها.

- نشاطات بعض أنواع الخلايا بجسم الإنسان مثل الخلايا الليمفاوية.

- الخلايـا الملتهبـة التي تكسـب الإنسان مناعة ضـد ميكروبات معينة، وتنشـأ المناعـة المكتسبة نتيجة لدخول مسبب في الجسـم يسمى "أنتيجن" وهـذا بدوره ينتج عـن وجود إثـارة لمراكز الدفـاع بالجسم تدفعهـا لإنتاج أجسام مضادة في صورة بكتيريا أو سموم بكتيرية أو مادة بروتينية.

- وهنـاك نوع من المناعة المكتسبة يستمده الجنـين من أمه أثناء حياته داخـل الرحم. فهي تمـده ببعض ما عندها من الأجسـام المضادة لأمراض قـد تكـون تعرضت لها من قبل؛ ولـذا فإن الطفل يكون محصنـاً ضد أغلب الأمراض المُعْدية في الشهور الستة الأولى من عمره.

وهكذا لكي تجد الميكروبـات الضارة طريقها إلى الجسم عليها أن تنفذ مـن خطوط دفـاع المناعـة الطبيعية والمكتسبـة، وهذه مهمـة صعبة تتوقف على قـوة الميكروبات ومقاومة الجسم. فقد يكون بإمكان الجهاز المناعي أن يحاصر الميكروبات المهاجمة عند نقطة ويدمرها نهائيّاً، وإذا ما استطاعت هذه الميكروبات أن تتوغل داخل الجسم فإن العقد الليمفاوية تحاول أسرها قبـل وصولها إلى الدم بحيث يتم التغلب عليها، أو تسبب التهاباً موضعيّاً في العقـد الليمفاوية. وفي حالة ضعف المقاومة قد تنجح الميكروبات في الوصول إلـى الدم، وغالباً يتـم التهامها بواسطة الخلايا الملتهمـة وتدميرها نهائيّاً دون ظهور لأعراض المرض على الجسم.

أمـا إذا كانـت الميكروبات شديـدة الضـرورة، وكانت مقاومـة الجهاز المناعـي للجسم ضعيفة، فـإن الغلبة تكون للميكروبـات وينشأ المرض الذي تظهر أعراضه وآثاره على الجسم.

وهكذا نجد أن الجهاز المناعي بشقيْه الطبيعي والمكتسب يعتبر من أهم العوامل التي هيأها الله - سبحانه وتعالى - للحفاظ على النفس والبدن.

4- حفظ المال بحسن التعامل مع البيئة وثرواتها

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان ليعيش على كوكب الأرض بين جنبات ثلاث منظومات متباينة، تتفاعل وتترابط مع بعضها البعض في شبكة من التدخلات بالغة التعقيد، هي التي تضم كل ثرواته وموارده التي بها تتحد جودة حياته: المنظومة الأولى هي النطاق الأحيائي الذي يشمل الطبقات السفلى من الغلاف الجوي، والطبقات العليا من الغلاف المائي، والطبقات السطحية من الغلاف اليابس، وهي منظومة كونية تسبح في فلك لا دخل للإنسان في تسيير مُجْرياته إلا في أُطر محدودة للغاية، والمنظومة الثانية هي النطاق الاجتماعي الذي يتضمن مجموعات النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية والإدارية التي تحدد علاقاته مع غيره من بني جنسه، أما المنظومة الثالثة فهي النطاق التقني الذي يتألف من كل ما يشيده الإنسان في إطار النطاق الأحيائي ويقع تحت إدارته وتحكمه بدرجة كبيرة.

ومن البيِّن بذاته أن حفظ الوجود الإنساني متوقف على استمرار وجود تلك الأنظمة الثلاثة في تساوق وانسجام مع بعضها البعض، والإنسان مطالب بأن يحافظ على هذا التوازن لصالح الحياة والأحياء، دون أن يجور على حق الأجيال القادمة، أو أن يفطن إلى آثار انشغاله الزائد بثورة العلم والتكنولوجيا... من هنا فإن منطق التقويم في علاقة الإنسان بالبيئة (الكون) يعتبر الأساس العقدي لشرح الوجود في التصور الإسلامي، وكذلك الأساس العقدي للغاية من الوجود الإنساني. فمن هذين الأساسين تحددت علاقة الإنسان بالبيئة ومنزلته في الكون، وتعددت جوانب النشاط الذي يقوم به في بيئته تحقيقاً لصالح الفرد والجماعة والأجيال المقبلة، وحفاظاً على الموارد الطبيعية التي هي عصب الحياة، وامتثالاً للقيم الإيمانية التي تشكل محوراً مهمّاً في حياة البشر.

لكن ممارسات بني الإنسان على الأرض تسهم في الإخلال بالتوازن البيئي الطبيعي الذي أوجده الخالق - سبحانه وتعالى - لمصلحة الحياة والأحياء.

وقد أدى هذا الإخلال إلى حدوث تغيرات غير طبيعية في المعدلات البيولوجية أو الكيميائية أو الإشعاعية، وهي التغيرات التي تُوصف بما يُسمى "التلوث البيئي" للإنسان ومحيطه الحيوي، ومتضمناً الهواء والماء والغذاء والتراب والحيوان والنبات، وقد زاد من حدة هذه التغيرات خلال العقود القليلة الماضية انفجار ثورة صناعية وتقنية عارمة واكبتها برامج تصنيع ثقيلة، وتوسعات هائلة في التنقيب واستخلاص الخامات الطبيعية، بالإضافة إلى تنويع مصادر الطاقة، واستخدام المخصبات الكيميائية للتوسع في الإنتاج الزراعي، واستخدام المبيدات لمقاومة الآفات والحشرات، وفي غمرة التنافس المحموم لتطوير الصناعات والتقنيات الحديثة؛ لم يفطن الإنسان إلى ما يسفر عنه هذا النشاط من تدمير لمقومات بيئته التي تدعم مقومات حياته، حيث واكبت النهضة التقنية زيادة مطردة في تركيز الملوثات بأنواعها المختلفة في المحيط الحيوي للأرض، فضلاً عن نضوب الكثير من الثروات والموارد الطبيعية.

وبطبيعة الحال لم يكن الإنسان بمعزل عن كل هذا، حيث تراكمت آثار التلوث في الجسم بمرور الزمن حتى بلغت في بعض الأعضاء الحساسة عند كثيرين درجة اختل معها الاتزان الطبيعي لمسيرة العمليات البيولوجية داخل أنسجة الجسم وخلاياه، وأصابت الأضرار المادة الوراثية الخلوية التي تتحكم في أنشطة الجسم الحيوية، وتمتد فاعليتها في حالة الأمشاج التناسلية للتحكم في مسار تكوين الأجيال المتعاقبة، مما قد يعرضها

لأمراض وراثية متنوعة مثل التشوهات الخِلْقية والأورام الخبيثة وغيرها.

وإذا كانت مؤتمرات قمة الأرض قد عُقدت بمبادرة العديد من الدول الصناعية المتقدمة، ومشاركة كل دول العالم، لوضع الضوابط التي تكفل الحد من مخاطر التلوث وفرض رقابة صارمة على تنفيذها، إلا أن العديد من الدول النامية ما زالت تبدي عدم الاكتراث في هذا الشأن، برغم ما تعكسه الإحصاءات الصحية من تصاعد متسارع في الإصابة ببعض الأمراض الكبدية والرئوية والكلوية والدموية، إلى جانب الزيادة المطردة في معدلات الإصابة بالأورام السرطانية.

وقد دعت ضرورة التعامل مع هذه الأخطار البيئية إلى استخدام آلية تعرف باسم "تقييم الأثر البيئي"، تطرح فيها البدائل لاختيار أقلها ضرراً، وهذه الآلية الحديثة لها سند في الشريعة الإسلامية الغراء بأصولها الكلية الدقيقة التي يمكننا أن نتخذها نبراساً يعصمنا من الخطأ إذا حالفنا الصواب في تطبيقها، وذلك من قبيل قول الفقهاء: (إن الأصل في الأمور الإباحة ما لم يكن هناك حكم شرعي قاطع بعكس ذلك)، وهذا يفتح لنا أبواب الإفادة المشروعة من كل جديد ينفع البشر أفراداً أو جماعات، فالأصل في الإسلام هو مراعاة مصالح الناس، ودفع الضرر عنهم، والحفاظ على البيئة، وصون مواردها، والتعامل معها تعاملاً رشيداً؛ حيث لا ضرر ولا ضرار، فالتخطيط للمشروعات ينبغي أن يعمل على استقامة المصالح والتوفيق بينها، اعتماداً على دراسة ووضع خيارات يتم الترجيح بينها، فالقاعدة الشرعية توضح أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطيل المفاسد وتذليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين من احتمال أدناهما، ومن قواعد

المفاضلة بين المصالح والمفاسد ترجيح المصلحة الأعلى على المصلحة الأدنى، واختيار أخف الضررين، والضرورة بقدرها، ودرء المفاسد أولى من جلب المنافع، والضرورات تبيح المحظورات.

ومثل هذه القواعد تضع الأسس اللازمة للنظر في مشروعات التنمية، حيث تنبغي دراسة السلبيات والإيجابيات عند التخطيط لأي مشروع، وموازنة الأمر للأخذ بجانب درء المفاسد، وفي جميع الأحوال تكون مصالح الأمة مقدمة على المصالح الخاصة للأفراد عند التعارض، وهو ما تقصده القاعدة الكلية الشرعية: (تقديم حفظ الكلي على الجزئي) وترجيح المصالح العامة على المصالح الخاصة، ومن هنا وُضعت القاعدة الشرعية: (يُتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام).

وإذا أخذنا هنا ثروة المياه، على سبيل المثال، بوصفها نعمة عظيمة لابد من المحافظة عليها كي لا تزول، فإن تعاليم الشريعة الإسلامية تأمرنا بالمحافظة عليها طاهرة نقية، وتنهانا عن الإسراف في استخدامها، قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (سورة الأعراف : 31)، وجاء في الحديث الشريف: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه) (رواه مسلم)، فمثل هذه الأعمال والتصرفات تسبب الأمراض الوبائية والمتوطنة، وتساعد على انتشارها، والنهي عنها ينسحب على جميع الملوثات الأخرى التي تضر بصحة الإنسان والحيوان وبقية المخلوقات.

وفي السنّة النبوية المطهرة أيضاً ينهى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن الإسراف في استعمال الماء، حتى ولو كان من أجل الوضوء، فقد رُوي عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ،

فقــال: (ما هذا الإسراف؟) فقال: أفي الوضوء إســراف؟ قال: (نعم وإن كنت على نهر جــارٍ)، وفي الحديث الذي (أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي) أن أعرابيّاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، وقال: (هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء، وتعدى وظلم).

بـل إنه صح أنه توضأ صلى الله عليــه وسلم مرة مرة، (رواه البخاري) من حديـث ابن عباس قال: توضأ النبــي، صلى الله عليه وسلم، مــرة مرة، وصح أيضــاً عنه صلى الله عليــه وسلم أنه توضأ مرتين مرتــين، (أخرجه البخاري) من حديث عبدالله بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرتين مرتين.

ولعــل في هذا ما يشجع على الاجتهاد في فقه المياه بتطبيقاته الواسعة؛ لكي يــؤدي دوره في تحقيــق الأمــن المائي للأمــة العربية والإسلاميــة، خصوصاً أن الإحصــاءات تشير إلى أن المسلمين يستهلكون يوميّــاً أكثر من (32) مليار لتر من الماء في الوضوء؛ مما أدى بالبعض إلى تصميم ماكينات وضوء للاستخدام في المساجد، واستخدام صنابير آلية لترشيد استهلاك المياه.

ويؤكــد كثير من العلماء والخبراء أن حاجة ســكان الكوكب إلى المياه سوف تتضاعــف خــلال العقود القليلة القادمــة، وعندها يصبح المــاء لا البترول، هو المــورد الأول الذي يتحكم بمصائر العباد في شتى البلاد، وعلى مستوى المنطقة العربية والإسلامية فإنها تعاني حاليّاً نقصاً في الموارد المائية؛ مما يتطلب قيام تعــاون إقليمي يراعي حاجات الشعوب العربية والإسلامية من المياه، خصوصاً إذا مــا علمنــا أن دول الجــوار العربي تتحكم بنحو (85 %) مــن الموارد المائية العربية؛ ولهذا فإن الحاجة ماسة إلى إنشاء هيئة مائية عربية وإسلامية، يكون هدفها تطويــر إستراتيجية موحَّدة تخدم المصالــح العربية والإسلامية العليا؛ لمنع الآخرين من انتهاك الحقوق المائية للعرب والمسلمين.

5 ـ فقه الواقع المعاصر بين العلم والشريعة

إن الثـورة التي نشهدهـا الآن في مجالات المعلومـات والاتصالات والفضاء والبيولوجيـا وغيرها تؤثر تأثيراً مباشراً على الناس في حاضرهم ومستقبلهم، بما أسفرت، وتسفر عنه من نتائج وإنجازات لم تكن تخطر على بال السابقين. ومـن فضـل الله - تعالى – علـى الإنسان أن أنـزل عليه شرائـع سماوية تتفق جميعهـا على عبادة الله - عز وجـل - وإفراده بالألوهية. كما تحث على مكارم الأخلاق وتنفّر مـن سيئاتها، برغم اختلاف الأحكام الفرعية فيها، مثل كيفية الصلاة، وكيفية الزكاة، والصيام.

ومـن فضـل الله علـى المسلمين أن جعـل أركان دينهـم العمليـة، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام بتركيز وإجمال. لكن إذا جَدَّت أمور أو ظهرت مشـكلات يكـون الرجوع إلـى أهل الذكر والاجتهـاد مطلوباً لإزالـة أي لَبْس أو غموض أو سوء فهم.

ولعل مـن أهم دلائل الواقعية في هذا الدين الحنيـف التيسير على أتباعه، ورفـع الحرج عنهم، والنزول عن المثُـل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة. قال تعالـى وهو يحدثنا عن رخص الصيـام من الفطر للمريض والمسافر: (شَهْرُ رَمَضَـانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِـدَ مِنكُـمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَـرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيـدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُـواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُـمْ وَلَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ) (سـورة البقرة : 185)، قال سبحانـه في ختام آية الطهـارة بعـد أن رخَّص في التيمم لمن لم يجـد الماء: (يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُـمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُـمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ

جَـاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّـنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِـدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًـا فَامْسَحُـواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْـهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيـدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة المائدة : 6)، وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد هذا الاتجاه القرآني وتبينه فيقول عليه الصـلاة والسلام: (بُعثت بحنيفية سمحـة) (رواه أحمد). ولا عجب بعد هذا الهَدْي من القـرآن والسنة أن نجد الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه يسير في نفس هذا الاتجاه، ثابتاً على الأصول والكليات، مرناً متطوراً ومجتهداً في الفـروع والجزئيـات، خصوصاً فيمـا يُسمى بـ "منطقة العفـو" أو "منطقة الفـراغ التشريعي" التي تركتهـا النصوص قصداً، وتُرك لفقهـاء الشريعة أن يختلفوا في تقديرها. ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصـور، أية غضاضـة أو حرج في إعلان وجوب تغيير الفتـوى، بتغير الأزمنة والأمكنـة والأعراف والأحوال[1]. بل إن هنـاك من بلغ الذروة فيما يُعرف بالفقه التقديري أو الافتراضي، أو فقه التوقع[2].

إن الثـورة العلمية والتقنية التي يشهدها عصرنا والعصور القادمة أسفرت عـن واقع جديد لم يخطـر من قبل ببال أحد مـن العلماء أو الفقهـاء، وأصبح المسلمـون في حاجة إلى استنباط الحكم الشرعي الذي يضع حدوداً فاصلة بين الحـلال والحرام في مسائل غـير مسبوقة. ومن أمثلة هـذه القضايا في مجال الاستنسـاخ مـا يحـدث نتيجة دمج خليـة جسمية (وليسـ حيوانـاً منوياً) من فرد مـع بويضة أُخذت من أنثى ثـم نُزعت مادتها الوراثية قبـل الإدماج لينتج "زيجـوت" يُغرس في رحم أنثى لينمو ويكـون جنيناً تتم ولادته. والفرد الناتج

---

(1) انظر: الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي.

(2) راجـع أعمـال نـدوة "الفقه الإسلامـي والمستقبل. الأصـول المقاصديـة وفقه التوقـع". وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان. الطبعة الأولى، 1431هـ /2010م.

هنا تكـون صفاته الوراثية من مصدر واحد هو صاحب الخلية الجسمية فقط؛ حيـث إنه لا يحمل صفات صاحبة البويضـة أو صفات من حملته في رحمها، إن مثل هذا الاستنساخ الـذي نجحت تجاربه في بعض الحيوانات، إذا ما انسحب جدلاً على الإنسان، فإنه يثير ضمن ما يثير مخاوف عديدة منها:

- إنتـاج مجموعـات من الأفـراد المتشابهـين تماماً، مما يخلـق مشكلات اجتماعية.

- إذا نتـج طفل ذكر بالاستنساخ من زوج، وأُخذت البويضة منزوعة النواة من زوجته، فهل يرث الطفل من المرأة التي حملته في رحمها برغم أنه لا يحمل أيّاً من صفاتها الوراثية؟

- الاستنســاخ يسفر عـن طفل بلا أمٍ حقيقية، برغم أن هناك سيدة حملته في رحمها، ويسفر عن طفلة بلا أب إذا أُخذت الخلية الجسمية من أنثى.

- الاستنســاخ يعطي الفرصة كاملة للتحكـم في نوع الجنين إن كان ذكراً أو أنثـى بحسب مصدر الخليـة الجسمية، ومن الممكن أن يؤدي هذا إلى مشكلات اجتماعية خطيرة.

- الاستنســاخ يـؤدي إلى تأجير الأرحام، أو إلـى أن تبيع النساء بويضاتهن لصالح من يريد استنساخ نفسه.

- قد ينتج عن محاولات استنساخ البشر أطفال بهم تشوهات جسمية، فمن يتحمل مسؤولية ذلك؟

- مـن الناحية النظرية (الافتراضية)، مـاذا يحدث لو عمدت النساء إلى الاستنساخ باستخدام خلاياهن الجسدية فقط، وعزفن عن التزاوج الجنسي؟ هل ينقرض الرجال؟

وفي مجال الهندسة الوراثية، حيث يتم إحداث تعديل في بناء المادة الوراثية لكائن حي بقصد حذف صفة من صفاته الوراثية، أو إدخال صفة وراثية جديدة عليه، هل يجوز تطبيق هذه التقنية على الإنسان؟ وإذا جاز ذلك، ما هي الصفات التي لا يجوز فيها التعديل؟

وفي مجال الفضاء، كيف يؤدي المسلم عبادته المكلَّف بها إذا كان في حالة انعدام الوزن في محطة فضائية، أو سافر ليقيم على أحد الأقمار أو الكواكب في مجموعتنا الشمسية؟

وفي مجال الاقتصاد، أصبح حفظ المال – الذي هو من مقاصد الشريعة الإسلامية التي تهدف إلى تحقيق التوازن بين الضروريات والحاجيات والتحسينات، وصولاً إلى تحقيق التنمية المنشودة، المتوازنة والمستدامة – غير مقتصر اليوم على حماية المعادن والثروات الطبيعية، أو الثمار، أو الممتلكات، أو غيرها، من السرقة أو الاستيلاء أو الغصب، وإنما تعدى ذلك ليشمل حماية العمالة ورأس المال بالاقتصاد المعرفي، وبخاصة "اقتصاديات العلم والتقنية". فما هو موقف الشرع من اعتبار المعرفة والمعلومات مالاً؟

هذه مجرد أمثلة من واقع حياتنا المعاصرة توضح الحاجة إلى صياغة أو استنباط أحكام شرعية تتناسب مع الواقع المعيش في ظل ثورات علمية وتقنية متلاحقة.

إن هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه من صنع خالق واحد عليم حكيم ومتصف بكل صفات الجلال والكمال والقدرة، والدليل على صفات الله جل في علاه أن الأفعال المحكمة قد صحت منه ابتداء، حيث أوجد هذا العالم على أعلى درجة من الترتيب والنظام، ولا يليق بكمال الحكمة ترك أمر الكون مضطرباً بغير سنة يجري عليها، فالله - سبحانه وتعالى - له الخلق وتدبير الأمر وفق

سنن أجراها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (سورة الأحزاب: 62)، وقد سلك القرآن الكريم مسالك كثيرة في إيقاظ العقول ولفت الأنظار للاستدلال على وجود الخالق - سبحانه وتعالى - عن طريق التأمل في قضية الخلق والوجود، وما فيها من آيات لا يعقلها إلا أولو الألباب: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (سورة فاطر: 43)، هذه هي طريقة القرآن الكريم في تأسيس اليقين الإيماني باستقراء الموجودات وملاحظة الظاهرات، والانتقال من المحسوس إلى المعقول، انتهاء إلى الاستدلال المنطقي على وجود الخالق الواحد المنعم على عباده بالخلق والتدبير.

كما تحدث القرآن الكريم عن العناصر التي تتألف منها المخلوقات الحية، فأشار إلى أن الماء هو الأصل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة النور: 45)، ونبّه الإنسان إلى العنصر الذي خُلق منه: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (سورة الطارق: 5-7)، وتحدث عن الخلق الأول للإنسان وهو خلق آدم من تراب، وتحدى الجاحدين أن يثبتوا أن لأحد في هذا الكون غير الله - سبحانه - أي أثر في الخلق والإيجاد من عدم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (سورة الطور: 35،36).

وفي عصرنا الحاضر نجد البحث العلمي في بعض المجالات يحيد عن المنهج السليم الموصّل إلى حقائق ونتائج يفيد منها المجتمع البشري كله، ويتخبط فيه العابثون على غير هدى، اللهم إلا انقياداً لهوى أو نزعة أشبه بنزعة الطفل الذي

يعبث بكل ما يلعب به، ويحاول تدميره غير مكترث بما يصيبه من أذى محتمل.

وكان من أحد المجالات التي أغرت العابثين بمزيد من العبث مجال الهندسة الوراثية التي أثبتت جدواها في عالم النبات والحيوان، ولكنها أتت في بعض التجارب على الإنسان بما لا يُحمد عقباه، وخير مثال على ذلك ما يحدث في عمليات الإخصاب الصناعي، عندما تكون الزوجة غير قادرة على الحمل، ويُستعان بامرأة أخرى بدلاً منها يُطلق عليها اسم "أم بديلة"؛ حيث أثار ذلك الكثير من القضايا والمشكلات الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تمس حقوق الإنسان وكرامته، فضلاً عن أنها تدنس قدسية حياته التي استحق لأجلها أن يكون خليفة الله في الأرض.

وتطورت عملية الإخصاب الصناعي بعد ذلك إلى تجارة عن طريق إنشاء "بنوك" للحيوانات المنوية، بهدف تحسين الجنس البشري، والحصول على جيل من العباقرة، لكن هذه التجارب باءت بالفشل، وأثارت التخوف من انتشار "جينات" غير معروفة ومتنحية وضارة بالجنس البشري، هذا بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يضمن أن المولود سوف يحمل صفات الوالدين نفسيهما، وبحث تجار هذه "البنوك" عن هدف شيطاني آخر، حسبوه إنسانيّاً، غير تحسين النسل، فوجدوا ضالتهم في الأسر المحرومة من الأطفال، حيث تقوم هذه "البنوك" في الوقت الحاضر بتوفير السائل المطلوب لحل مشكلة العقم عند أحد الزوجين أو كليهما، وفي أغلب الأحيان يكون المتطوع غير معروف حتى لا يكوِّن الزوجان علاقة ما معه، ولكي لا يُطالب بالطفل فيما بعد! وقد نجم عن هذا السلوك قضايا أخلاقية وقانونية واجتماعية ودينية، بالإضافة إلى تفاقم المشكلة الصحية، فالمتطوع - كما سبق القول - مجهول الهوية، وفي الغالب لا يعرفه حتى الطبيب، وكل ما يمكن الحصول عليه من معلومات هو الصفات

الخارجيـة التي تساعد في عملية الاختيار، أمـا الأمور المرتبطة بالأمراض فمن الصعـب التعرف عليها حتى لو طلب الطبيب سيرة حياة المتطوع، وإن أقصى ما يمكن معرفته هو نوع الدم وخلوه من الأمراض التناسلية. أما الأعراض الوراثية غـير الظاهرة فمن الصعب معرفتها. من ناحية أخرى، يخشى البعض أن تكون هناك صلة قربى بين المتطوع والأم دون أن يعلما، كأن يكون أباها أو أخاها، وهو أمـر وارد وممكن الحدوث، خصوصـاً أن (سائل) الشخصـ الواحد يُستخدم لتلقيح أكثر من امرأة (من ست إلى سبع نساء).

وترتبـت على كل هذا آثار خطـيرة، لكن العابثين تمـادوا في غيهم وشرعوا في تجميـد الأجنة والحيوانات المنوية لعشرات السنـين لاستخدامها في أي وقت وحسـب الطلـب، وهنا تعالت تسـاؤلات من نـوع جديد بسبب غيـاب الضوابط والقوانـين الصارمة التي تحكـم مسيرة البحث العلمي، وتوجهـه لما فيه صلاح المجتمـع الإنسـاني وتقدمـه، فشتـان شتان بين البحـث العلمي لبحـث الأسرار الإلهيـة في عملية الخلـق والإفادة منها، والعبث بعملية الخلـق الذي لا يسفر إلا عـن ضرر بالعباد، وشتان شتـان بين تدبير العباد وتدبـير رب العباد القائل في محكم التنزيل: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) (سورة المرسلات : 23).

وهنا تتجلّـى أهمية الحاجة الماسة إلى نظرية شموليـة في مقاصد الشريعة الإسلاميـة كسيـاق اجتهـادي يُعـين علـى حـل المسائـل الفقهيـة الطارئة من مستجدات العلوم التكنولوجية، حيث لا توجد لها نصوص في الكتاب والسنة، ولا يمكن استخدام القياس في تحليلها.

المصادر والمراجع

1 - ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1975، ص22.

2 - أبو إسحق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة (د.ت)، ج1 ص3.

3 - أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، دراسات تأصيلية، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2007م.

4 - أحمد فؤاد باشا، الإعمار الحضاري فريضة إسلامية، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، 2011م.

5 - أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، القاهرة، 1984م.

6 - أحمد فؤاد باشا، إيمانيات العلم، تمهيد لنظرية المعرفة في الإسلام، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، 2013م.

7 - إسماعيل الحسني، الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 57، ص 45 : 82، صيف 1430هـ/2009م.

8 - أعمال ندوة "الفقه الإسلامي والمستقبل. الأصول المقاصدية وفقه التوقع"، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، 1431هـ /2010م.

9 - جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، الترجمة العربية، عالم المعرفة، الكويت، 1993م.

10 - جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سورية، 1422هـ /2001م.

11 - جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، مراجعة: د. إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (1990)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، صفر 1416هـ/1995م.

12 - عبدالحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة، الخليج العربي للطباعة والنشر (د.ت).

13 - عبدالحميد عبدالمنعم مدكور، دراسات في علم الأخلاق، مكتبة الشباب، القاهرة، 1990م.

14 - لطف الله قاري، الإنجازات العلمية للعرب والمسلمين في القرون المتأخرة، دار الفيصل الثقافية، الرياض 1427هـ2006-م.

15 - مارفن هاريس، الأنثروبولوجيا الثقافية، الترجمة العربية مراجعة أ.د. السيد حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2006م.

16 - محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

17 - محمد قطب، التطور والثبات في حياة البشرية، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

18 - و. ج. دي بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة: زكي سوس، مراجعة: د. يحيى الخشاب، د. صقر خفاجة، دار الكرنك، القاهرة، 1965م.



السيرة الذاتية

د. أحمد فؤاد باشا

من مواليد 1942م ، مصر. أستاذ الفيزياء المتفرغ، والعميد الأسبق لكلية العلوم جامعة القاهرة والنائب الأسبق لرئيس جامعة القاهرة. عضو مجمع اللغة العربية، والمجمع العلمي المصري، ولجنة العلوم والحضارة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، واللجنة العليا الدائمة لحماية المخطوطات، واللجنة العلمية بدار الكتب والوثائق القومية، واللجنة الوطنية للأخلاقيات الحيوية باليونسكو، واللجنة القومية للفيزياء البحتة والتطبيقية، والمجلس النوعي للثقافة والمعرفة، واللجنة القومية لتاريخ وفلسفة العلم بالأكاديمية المصرية للعلوم والتكنولوجيا.

مؤلفاته وأعماله

الميكانيكا العامة وتطبيقاتها، موراي شبيجل 1977 ، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة 1983 ، الضوء والحياة 1995 ، في فقه العلم والحضارة 1997 ، دراسات إسلامية في الفكر العلمي 1997 ، رحيق العلم والإيمان 2002 ، كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني 2004، من الذرة إلى الكوارك، سام تريمان 2006 ، فلسفة الكوانتم، رولان أومنيس 2008، فلسفة العلوم الإسلامية 2013.